



•

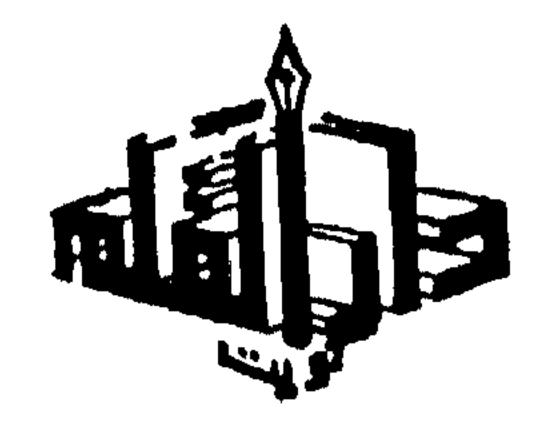
جفوق الطب بجفوظت الطبعت الأولى الطبعت الأولى الطبعت الأولى م ١٩٨٠م ١٩٨٠م

دار القسلم الكويت ـ شارع السور ـ همارة السور ص.ب ١٤٦١ - دار القسلم هاتف ١٤٦٠ - برقياً : توزيمكو



نالیف عبدالحمید مصرفی

ترجستمة الركوركا فطب المحوادي





## مقيدةالمرجم

حين ظهرت الطبعة العربية الأولى من هذا الكتاب في أو ائل عام ١٩٦٩ كان المؤلف الأستاذ عبدالحميد صديقي قد أعد الطبعة الثانية المنقحة والمزيدة من الأصل الانكليزي ، فظهرت عسام ١٩٦٩ أيضا ، وفيها تنقيحات و (خاتمة ) في نهاية الكتاب لم تكن في الطبعة الأولى .

واليوم وبعد أن مضت عشرسنوات علىظهور الطبعة العربية الأولى والطبعة الانكليزية الثانية المنقحة ، أتقدم بالطبعة العربية الثانية بعد أن أضفت إليها ( الحاتمة ) وبعد أن راجعت الترجمة مراجعة شاملة توخيت فيها تعديل مسا عداله المؤلف في طبعته الانكليزية الثانية وتوضيح بعض العبارات وتقويم أسلوبها .

والله أسأل أن بمن علي وعلى المؤلف بقبول العمل وأن ينفع به . وله الحمد أولاً وآخراً .

ذو القمدة ١٣٩٩ تشرين الأول ١٩٧٩

## ين و ح

تفضل الأستاذ الدكتور محمود الأمين بشرح غوامض تاريخية وردت في بعض الأماكن من الكتاب .

وتفضل الآخ الدكتور ياسين خليل بمراجعة فصل ( فلسفة هيغل للتاريخ) وأبدى ملاحظات قيمة حول بعض المصطلحات الفلسفية في الترجمة ، وشرح بعض الأمور الغامضة ، يجدها القارىء في حاشية ذلك الفصل مع حرفي ( ي. خ. ) .

لذا أتقدم إليها بالشكر الجزيل.

المترجم

#### إهداءالطبعدالإنكليزية النانية

إلى خالد أحمد صدّيقي الذي حرمتني وفاته وحرمت كثيرين مثلي من بركات صديق وفيّ

#### بين يدي الطبعة الثانية مِنَ الكِتَاب

تأتي هذه الطبعة الثانية بعد أن مضى وقت طويل جداً على ظهور الطبعة الأولى ، وليس في ذلك ما هو غير مألوف أو غير متوقع ، فهذا الكتاب يبحث في مشكلة التفسير الفلسفي ، فلا يكن أن يتوقع له رواج عاجل. ولكن ما يدعو إلى الرضى ، أن هذا الكتاب بما عالج وما أغفل ، قد أثار اهماماً في بعض الأوساط. فقد قررته بعض الجامعات كتاباً دراسياً وأوصت جامعات أخرى باتخاذه مصدراً إضافياً لتلاميذ الدراسات العليا في اختصاص التاريخ. وقد وجد فيه تلاميذ الفلسفة والدراسات الإسلامية كتاباً مساعداً وطلبوا إعدادة طبعه . كذلك ترجم هذا الكتاب وبذلت غايدة الجهد لتحسين طباعته . وإنني لأشكر الكتاب وبذلت غايدة الجهد لتحسين طباعته . وإنني لأشكر الدكتور عابد أحمد علي ، عميد الدراسات الإسلامية في الجامعة الهندسية بلاهور سابقاً على ما أبداه من توجيه ، والسيد عطا الهندسية بلاهور سابقاً على ما أبداه من توجيه ، والسيد عطا نشره الكتاب باللغة الانكليزية .

عبد الحيد صديقي حزيران ١٩٦٩

#### بين سيدي الحيات

إن كل مقاله من هذه المقالات مستقلة بنفسها ، ولست أدّعي أنها تكوّن باجتماعها مع بعضها كتاباً ، إلا أن فيها شيئاً من اتحاد وجهة النظر من حيث أنها جميعاً تبحث في جانب واحد من المعرفة الإنسانية ، ألا وهو فلسفة التاريخ .

وأنا مدين بالشكر أيضاً لمولانا أبي الأعلى المودودي، ومولانا أبي الخير المودودي، ومولانا نعيم صديقي، والدكتور وحيد قريشي والاستاذ خورشيد أحمد، وأخي افتخار رسول لما قدموه من إرشاد ومعونة ومساعدة.

عبد الحميد مسديقي

قعن ال بقلب براقب ويت لقي

# المقالة

يرجع أصل فلسفة التاريخ إلى رغبة البشر في أرف يجدوا الجواب الشافي لسؤالين جوهريين مما : لماذا جدث ؟ وكيف حدث ؟

ولقد بـــدأ الإنسان في مرحلة مبكرة جداً من ارتقائه في محاربة فكرة اعتبار المصادفة قوة محركة في الكون ، واجتهد كثيراً لكي يكتشف القانون المسيّر الذي يدل هــذا الكون على وجوده دلالة تدركها الحواس.

ولقد كان الذين سجاوا حوادث الماضي يشعرون بهذه الرغبة، وحاولوا أن يشبعوها بـان انتقاوا من مجر د تسجيل الحوادث تسجيلا بسيطاً إلى أسلوب تاريخي عملي بنوا فيه كل حادثة على حادثة أخرى ، ووصفوا الواحدة بدلالة الأخرى .

ولكن الإنسان لا يمكن أن يقنع بهــذا أيضاً إذ لم يوضح له هذا الأساوب إلا ظواهر منفصلة ، أمَّا ما يريده فهو أن يعرف

« قصة الكون » التي لم تكن هذه الأحداث إلا بعض أجزائها .

وقبلأن تتضع الفكرة بزمن طويل كان المعتقد أن كل وجود البشر عملية واحدة لا تعتبر فيها الحوادث الواضحة المعينة التي هي موضوع التاريسخ المكتوب سوى مظاهر عرضية . وهكذا كان الانتقال من الكتابة التاريخية المعروفة في سرد الحوادث سردا قصصيا معذكر زمانها ومكانها الثابتين إلى التفسير الفلسفي للتاريخ الذي يفسر هذه الحوادث تفسيراً منطقياً ويحاول \_ فضلا عن ذلك \_ أن يكتشف القانون الذي و ينظهم هذه الحوادث ويحاول أن يجد في حدوثها معنى يعطي لحوادث الماضي تسلسلا منطقياً ، وينير الحاضر ، ويضيء بعض جوانب المستقبل » (١) .

إن فلسفة التاريخ يجب أن تبدأ من فكرة أن التاريخ يحكمه قانون ما ، « حتى ولو كانت المصادفة هي هـذا القانون . ولكن إذا كان يجب اعتبار المصادفة قانون التاريخ فإن فلسفته ستنتهي حيث بدأت ، إذ أنه إذا صح في هذه الفلسفة أن أمور البشر تخضع للحوادث العمياء التي لا يقيدها نظام فلن يكون لهـذه الفلسفة شيء آخر تضيفه إلى ذلك » (٢) .

والأمر الثاني أن الحياة البشرية ذات معنى ، ولذلك نرى ان

Max Nardau, The Interpretation of History, P.44.

<sup>(</sup>٢) المصدر نفسه .

أي إنسان سوي إذا أراد أن يـاتي عملا شمورياً فكسر قليلا قبل أن يقوم به ووضع نصب عينه غاية معينة. ولكن يجب أن لا نعتبر هذا الفرض يعني أن الحوادث التيمنها يتكون التاريخ، ذلك المركب الجميل والمعقد في نفس الوقت ، كلها حوادث تمسّت " و فقاً لغاية قسد 'عيننت من قبئل' . ﴿ إِنْ سَلْسَلَةٌ أَحَدَاثُ الْعَالَمُ أُو حركة الكون في الزمن مجردة من الغاية حتماً إذا عنينا بالغاية هدفاً معروفاً من قبل - هو مصير ثابت بعيد تسير المخلوقات كليا نحوه . إن اعتبار أحداث العالم ذات غاية بهذا المعنى معناه أننا نسلبها اصالتها أو صفتها الخلاقة». إذ ليس في التاريخ ما يسوغ الزعم بان عقلا ذكيا ساميا خارقا يستخدم الإنسانية الساذجة ليحقق ما يريد. فهذا الكون كيان لم ينته 'صنع'ه ، فهو دانما في توستم وامتداد . وبذلك يكون بجسالاً محفيزاً لنشاط الإنسان نشاطاً حراً خلاقاً يستطيع به أن يسيطر على المالم المادي من جهة ويبلغ بقواه الفردية درجة الكال من جهة أخرى . « فهذا الكون كون نام قابل للاتساع والامتداد إلى مدى غير محدود . إذ ربما يكن في أعماق كيانه حسلم مولد جديد . ان الكون ذو غاية ، بممنى واحد فقط هو الممنى الذي يدل على أنــه انتخابي بطبيعته وأن طريقة " إلى الإتيان بشيء جديد هو العمل الدائب على حفظ الماضي وإضافة شيء إليه ، (١).

Muhammad Iqbal, The Reconstruction of Religious Thought in (1) Islam, P. 55.

والأمر الثالث أن الإنسان ( الذي هو محور فلسفة التاريخ ) ليس مجرد مركب معقد من الكهيربات ( الاكترونات ) والبروتونات أو جعبة نفسية بمسلوءة بالدوافع النفسية . ولكنه مخلوق معقد إلى حدد عجيب، ولا يمكن تحليله تحليلا علمياً. فقد كان يشعر دائما أنه شيء أكثر من مجرد مختبر كيمياوي تسيره غريزة الجنس أو غريزة الجوع . . إننا نجد في التاريخ الاجتماعي للبشر مفامرات لا تعد ولا تحصى لم يخترقها أبسداً ما يسمى بالأشعة المجهولة ، ولم يحلم بها أرقى الحيوانات عقلاً .

كلنا نعلم أن الإنسان قد 'قيد داخل حدود وجوده كإنسان، وأن حياته تعينها القوانين الطبيعية والكيمياوية، فهو قد أوجد في عالم لا يغي بحاجاته جميعاً إلا إذا بَجد وتعب . لذا فإنه يشعر بأن حوله محيطاً مؤلماً جداً وهو محاول أن مجعله مبهجاً.

إن الرغبة في تحقيق هذا الهدف هي غاية كل الوجود الإنساني، وغاية سعي البشر منذ القدم . « ولو وضعت الأسباب التي تكن وراء أعمال الإنسان في أبسط التعابير لظهر لنا أن إرادة أي أمرى الا تقررها إلا حاجاته التي تظهر في حالت الشعورية بشكل شعور بالألم » .

وهكذا نجد أن هناك نوعاً من التوتر تسببه الذات الإنسانية إذ تغزو المحيط المادي ، والمحيط إذ يغزو الذات الإنسانية، وإن انتصار العالم المادي الذي ظل دائماً مستحوذاً على انتباه الإنسان وإرادته ، قسد جمل كثيراً من المفكرين يعتقدون أن البيئات

المادية هي التي تفرض شكل مصير بني الإنسان. وقد أخذ ( كوميت البكل راتسل Buckele Ratzel ) فضلا عن ( كوميت ( Comete ) ( وسبينسر Spencer ) و ( آلان دريبر Draper ) على عاتقهم وضع هذه القوانين. وكانوا يتجنبون ذكر العنصر البشري، ولكن تأكيدهم على العالم المادي جعلهم يجردون التاريخ من صفته البشرية ، فلا يفر قون بين الإنسان والأحياء الأخرى العليا منها والدنيا ، وبين النبات والحبوان .

وكا أن التفسير الجغرافي للتاريخ مقبول لدى علماء الفيزياء ، فإن التفسير الاقتصادي للتاريخ أكثر موافقة للمقل عند المؤرخين وأكثر منهم عند علماء الاجتاع. فمفتاح التاريخ يعتبر الآن هو الإنتاج الاقتصادي للإنسان. وطبيعي أن هذه النظرية كسابقتها تستند إلى حد لا يستهان به على النظرة الجغرافية للتاريخ.

وتقرر همذه النظرية أن العوز الاقتصادي النسي هو الحافز لكل تقدم ، لذا فإن عدم التناسب بين حاجات الإنسان التي لا حدود لها وبين الوسائل المحدودة هو الألم الذي تسعى البشرية إلى تسكينه وتهدئته .

وحتى لو نظرت إلى هـذه النظرية نظرة سريعة عابرة فإنك ستقتنع بأنها قد تجاهلت الشخصية الإنسانية تجاهلا كلياً. والحقيقة الواضحة التي لا مراء فيها هي أن على البشرية أن تعتمد على العالم المادي لإزالة الألم المتأتي من حاجاتها الطبيعية ، وبالرغم من أن الإنسان ليس هو خالق هذا الكون ، فإن لديه الإرادة والمقدرة

على تسخيره لمصلحته . وهكذا يكون الإنسان في هـذا العقد المبني على الأخذ والعطاء بينه وبين محيطه الطبيعي أو الاقتصادي دور فعال جداً 'يظهر به الإنسان ما في وجوده من مكنونات . يقول إقبال : و إن مهمة الإنسان أن يساهم في أعمق مطامح الكون من حوله ، وأن يقرر شكل مصيره هو ومصير الكون ، تارة بتكييف نفسه حسب قوة الكون ، وتارة ببذل كل طاقته الصياغة قوى الكون بالشكل الذي يتفق وأهدافه (أي أهداف الإنسان) وغاياته » (١) .

وهنا يبرز السؤال التالي : هل في وسع الإنسان أن يصل إلى هذه الغاية بمجرد السيطرة على محيطه المادي ؟

هنالك عدد غير قليل من الذين يعتقدون أنه يمكن حل الأمور المعقدة في حياة الإنسان بواسطة القوانين الطبيعية . وهم يعتقدون أن التقدم السريح الذي استطاع الإنسان أن يحققه في مجال السيطرة على قوى الطبيعة حقيق بأرث عنحه من الأمن والسعادة خيراً بماكان له في العصور السابقة . ولكن لو أمعنتا الخرائم واستعمال الشدة والعنف في النظر لوجدنا أنه إذا كانت الجرائم واستعمال الشدة والعنف في

<sup>(</sup>١) المصدر نفسه ، ص ١٢ .

رتجد نصا مشابها في ص ١٩ من الترجمة المربية لمباس محمود المطبوعة في المقاهرة عمام ه ١٩ منوان تجديد التفكير الديني في الإسلام. تأليف محمد إقبال. ( المترجم )

تلاش ، وإذا كانت قيمة حياة الإنسان قد ازدادت. فليس ذلك لانتصار الإنسان على العالم المادي . . بـل لعله نتيجة لضعف الإرادة ، والكسل ، أو لعله نتيجة لوجود رقابة وسيطرة أكثر في الدولة الراقية ، وإن كل اعتداء أو تجاوز يكتشف حـالا ويعاقب عليه ، حتى إن الإنسان ليعيش في خوف نافع من سلطة موجودة دامًا في شعوره تراقبه .

إن الإنسان المتمدن ليسأحسن 'خلمُ من الإنسان المتوحش، وإنسان اليوم لا يختلف عن الإنسان في أقدم العصور الحجرية. في أي وجمه يعتبر الفوضوي الذي يرمي قذيفة دون أن يلتفت إلى أنها قد تمزق الأطفال والنساء إربا أسمى من المقاتل المتوحش الذي يهاجم أعداءه بالليل ويذبح الرجال والنساء والأطفال!

هــل إن صاحب الشركة الخبير بالمضاربات التجارية ، الذي يكدّس مئات الملايين ويسرق آلاف الأسر من كل ما لديها دون أن يتأثر أو تتحرك مشاعره ، ويقودهم بذلك إلى الشقاء واليأس وحتى إلى الانتحار بينا يغتني هو بثمرة أتماب حياة أهــل هذه الأسر ، هل إن هــذا أقل إجراماً وتلبساً بالسرقة والتقتيل من قطــاع الطرق العريقين ؟ . .

إننا نجد أن في الاختراعات الفنية تقدماً لا شك فيه، ولكن هذا لا يدل أبداً على أي تقدم في سعادة البشر ، إذ أن هذه المخترعات تسهل على مخترعيها إشباع الأنانية الخبيثة في نفوسهم. بل لقد أصبح كل اختراع وسيلة لإساءات جديدة لم يكن يكن

القيام بها أبداً - أو بهذه السهولة - باستعمال آلات أقل منه كالا.

وهكذا نجد أنالتقدم العلمي - وإن كان أحد علامات التقدم الإنساني - لا يضمن التقدم للبشر . وأنه ليندر أن ينقطع خط التقدم العلمي إلا عندما تحل بالمجتمع كارثة تدسم ، إذ أن أي شيء يستم تحقيقه في العلوم المادية يستغل اعتياديا للإتيان بأشياء أخرى جديدة وتحسين ما تم تحقيقه . أما أمر تقدم الإنسانية فيختلف عن هسندا ، إذ ليس في حياة الإنسان الأخلاقية تقدم حتمي ، فهي معرضة للتأخر كا هي معرضة للتقدم، وإن ماضيها لا يضمن مستقبلها .

يتضح من ذلك أن الإنسانية ليست قط مستقرة ثابتة ، بــل هي في حركة دائبة ، ولكن حركتها ليست تقدماً دائماً . فما هو إذن القانون الذي يسيطر على حركتها ؟

لقد قلت آنفاً إن كل الأعمال التي يقوم بها الناس أفراداً أو جاعات ، طبقات أو شعوباً ، إغسا يقومون بها دفاعاً عن سعادتهم ، أي عن حياتهم ، وحماية لأنفسهم من الألم . ولأجسل بلوغ هذه الغاية لا بد الإنسانية من أن تبذل الكثير من الجهد . وهذا يدفعها إلى العمل ، فتقهر اله المهادي وبذلك تخطو خطوة إلى الأمام في طريق التقدم . ولسس انتصار الإنسان هسذا يزيد حياته في كثير جداً من الأحيان ألما بدل أن يريحه من ألم الحاجة المادية ، إذ أن أو لئك الذين و هبوا ذكاء أكثر يفلحون في سرقة نصيبه الشرعي من حكنوز الطبيعة ، ويستطيعون أن يبرووا

أفعالهم مهما كانت ظالمة وجائرة على بني الإنسان بقانون أخلاقي مبني على القوانين المسادية . وهكذا تتأخر الإنسانية بدل أن تتقدم . فإن تقدمها الحقيقي يكن في أن ظروفا ملائمة 'تخلق من الطبيعة نفسها وأنها تنتقل مع هذه إلى الإنسان السوي. فالخطوة الأولى واجب العسلم ، والثانية واجب الأخلاق ، إذ بالأخلاق وحدها يستطيع المرء أن ينجو من الإغراء الذي لا يطاق والذي يضعف النسيج الخلقي عند بني الإنسان . وبتعبير آخر يمكن أن يقال : إن التقدم يكون بسيطرة المبادىء الأخلاقية على قوى الطبيعة . وقد حوى التاريخ شواهد كافية على أن القوة التي لا تقيدها الأخلاق تصيب العالم بهزات عنيفة قاسية .

### النظرة الاحيائية للناريخ

وهل يمكننا أن نحيي حضارة مندثرة ونعيدها إلى سالف بحدها وعظمتها ، ؟ هذا سؤال نوقش و بحث كثيراً في المحافل الفكرية العلمية. فكثير من الناس يعتقدون أن للحضارة أطواراً من العمر تمر بها الإنسان. و فالطور من العمر التي يمر بها الإنسان. و فالطور الأول طور الفتوة والقوة وهو عصر الحكومة القوية والتوسع المسكري ، وفيه تكون الفنون غير منقبة أو مهذبة ولكنها قوية . ثم تنمو الحضارة وتنضج ، وحينذاك يكون عصر ذهبي للفن والأدب . . ثم تبدأ ، دون أن تشعر ، عملية الانحطاط . فيضعف الإلهام في الفن والأدب ثم لا يلبث معينه أن ينضب . فالروح تحقق غياية إمكانياتها في عالم الواقع بشكل شعوب ، ولغات ، وعقائد ، وفنون ، ودول ، وعاوم . ومستى حصلت ولغات ، وعقائد ، وفنون ، ودول ، وعاوم . ومستى حصلت الغاية – أي أن كل مسا في الإمكانيات الداخلية أنفيذ وصار في عالم الواقع شيئاً ظاهراً – فإنها تتصلب وتفسد ، ويجمد دمها وتنهار قوتها ، وتصير مدنية – وهي الفترة التي ينطفىء فيها ما في وتنهار قوتها ، وتصير مدنية – وهي الفترة التي ينطفىء فيها ما في

الروح من نار, وهذا الذي يحصل في الداخل والخارج والنهاية التي تنتظر كل حضارة في هذه الحياة هو مآل كل أفول تاريخي، (١).

على هذا النمط – مع اختلاف يسير – سار تاريخ حياة بابل وآشور ومصر واليونان وشبه جزيرة العرب . والتاريخ مشحون بالأمثلة التي تدل على وأن موجات متاثلة لا نهاية لها من الحضارات البشرية قد ظهرت في الأزمنة الطويلة ، وارتقت كلها رقياً هائلا وانتعشت في ظروف زاهرة من الحياة ثم انكشت وتلاشت ، وصار سطح الزمن مرة أخرى فلاة نائمة » (٢) .

ويستنتج من ذلك منطقياً أن جميع حضارات بني الإنسان قد وصلت أوجها يوماً ما وبعد أن استمتمت بأيامها الزاهرة اختفت في ليل لا نهاية له الذا فالحديث عن أمر إحيائها إنما هو مثل الحديث عن إعادة أيام طفولة شخص ما اوهو ما لا يمكن حدوثه إلا في الحيال .

Oswald Spengler, The Decline of the West, Vol. I, P. 106 . (1)

<sup>(</sup>٢) المصدر نفسه .

حصل لوجود دافسع داخلي ينبض في صدور البشر. فالمذياع والمذياع المصور والطيارة ليست هي ذاتها حضارة ولكنها علامات على تقدم البشر في عالم العلم ، فهي لا تدل إلا على أن الإنسان يسعى للسيطرة على الطبيعة . فمكان الحضارة الحق عقل الإنسان ( الذي هو مصدر كل ما يقوم به الإنسان من عمل ) لا المالم المادي . إن الحضارة لا تعني طرازاً معيناً من العيش، وإنما اتجاهاً فكرياً وطريقة في التفكير 'يؤديان آخر الأمر إلى إيجاد نوع معين من السلوك الإنساني ، أو هي كيان الأمسة الفكري الذي تستضيء به في كل ما تأتي من عمل .

وإن المعلومات التاريخية التي لدينا تبين لنا أن التاريخ -حتى هذه الساعة - قد تكرر حوالي عشرين مرة كان فيها جميعاً يوجد محتمعات إنسانية من النوع الذي ينتمي إليه مجتمعنا الغربي مثال ذاك أن الرومان واليونان في العصور السالفة وشعوب الغرب اليوم كلهم ينتمون إلى حضارة مادية واحدة بعينها ، على ما بينهم من بون شاسع في الزمان والمكان .. بل إنك لتجد في العالم الآن أنما عديدة قد مزقتها المنافسة القومية ، وهي مع ذلك متفقة في المشكلات الأساسية للحياة الإنسانية . خد مثلا لذلك انكلترا أو أمريكا أو اليابان أو ألمانيا . فهم جميعاً يعالجون مشكلة العلاقة بين الإنسان والإنسان ، وبين رأس المال والعمال ، وبين الفرد و المجتمع بطريقة و احدة . فلماذا كان هدذا التشابه وبين الفرد و المجتمع بطريقة و احدة . فلماذا كان هدذا التشابه العجيب بين هدذه البلدان ؟ لأن نفس خيط ( المادية ) يمر من

سداة النسيج المزوق لحياتهم المتعددة الجوانب ومن لحمته ، ففي ضجيج الحياة وضوضائها — مهها اتسعت وامتدت ، وفي تضارب المواطف والمصالح ، وفي إلحاح الدوافع العاجلة وضغطها ، وفي صخبهم للحصول على المطالب المتسمة بالأنانية — تجد أن أبصارهم لا تزول عن غايتهم المثلى — وهي تحقيق وسائل الراحة المادية . إن التطلع إلى هذه الغاية المثلى لا يقتصر في تجلسه على اقتصادهم وسياستهم ، وإنما يكاد يشمل كل جوانب مجتمعهم تقريباً ، وكل المجالات المهمة في حياتهم — فنونهم وعلومهم وفلسفتهم ودينهم وقانونهم وأخلاقهم وسلوكهم وتقاليدهم ومن ذلك شكل المائلة والزواج — وخلاصة القول : إنها غاية 'تحسِس بها تنبض في كل طريقة حياة المجتمع الغربي تقريباً وفي فكره وسلوكه .

إن الحضارة العظيمة ليست قط مكاناً يكد س فيمه حسد من الظواهر الحضارية المختلفة تكديساً تكون فيه الواحدة بجنب الأخرى وليس بينها وبينها علاقة ، وإنما هي الحضارة التي تمثل وحدة أو كياناً مستقلاً يتغلغل في أجزائه المختلفة مبدأ أساس واحد، ويتصل بالقيمة الأساس التي تقوم منها مقام الفكرة الرئيسية والعقل . ولو درسنا عن كثب بنيان المجتمع الحديث لوجدنا أنه مقام على أساس و مادي تجريبي لا ديني دنيوي » وأن حضارته مبنية على هدذه القيمة الجديدة التي أصبحت بمثابة مبدأ وأقيم مبنية على هدف القيمة الجديدة التي أصبحت بمثابة مبدأ وأقيم كيانها كله حولها . ليس من شك في أن مدنيات قدد ظهرت وزالت ، ولكن الحضارات أفلحت في كل مرة في أن تعود إلى

الحياة تارة أخرى عند أمم غير التي كانت عندها من قبل. وفحين انهارت المدنية الصينية القديمة في القرن السابع قبل الميلاد لم يمنع انهيارها المدنية الإغريقية المعاصرة لها من أن تمضي في الصعود نحو أوج رقيها في الجهة الأخرى من العالم القديم. وحين انقرضت المدنيسة الإغريقية الرومانية آخر الأمر بسبب آفتي الحرب والطبقات اللتين استشرتا في القرن الخامس والسادس والسابع للميلاد لم يحل ذلك دون ميلاد مدنية جديدة في الشرق الأقصى في تلك السنين التي قاربت الثلاثمائة ، (١).

إن تكرار الحضارة هذا ممكن لأناية طائفة أو أمة تستطيع أن تتخذ أية نظرة للحياة متى شاءت. وهذه النظرة تضفي لونها الخاص على كل الأعمال.

فإذا اعتادت شعوب أن يكون لها سلوك ما ، فإن سلوكها هذا يكو"ن لها حضارتها . فحقيقة الحضارة بنيان تشيده النظرة المسيطرة دائماً والتي تظهر في أعمال متعلقة بالعادة التي درج عليها مزاج خاص . إن الحضارة أساس المدنية ، والمدنية بصورة عامة تعبير عن الحضارة في الحدود التي تفرضها الظروف . لذا فقيد يكون اختلاف بسيط في المدنية بسبب تغيير الزمان والمكان . ولكن إذا كانت النظرة إلى الحياة واحدة فلا بد من أن تتشابه الحضارات . إن الطبيعة الإنسانية ، على كثرة تقلبات الزمن ، لم

Arnold Toynbee, Civilization On Trial, P. 24.

يطرأ عليها أي تغير مطلقاً . فحب السلطان ، والتحمس للعلم ، البواعث توجه أعمال البشر حتى هذا اليوم. والماضي الذي تولسّى هو نفسه الذي يأتي أمامنا بلباس المستقبل ، ونحن نظن أن شيئاً جديداً قد قام على أشلاء الماضي وأنه ليس بسين ذلك ( القديم ) وهذا (الجديد) شبه. ولكن هذا تجاهل شديد للحقيقة الواقعة. د فالحربُ والطبقات كانا ممنا منسذ ظهرت المدنية الأولى فوق سطح الأرض في الحياة الإنسانية البدائية . فهسل كانت الحرب الأهلية (١) مثلا الحادثة الوحيدة أم أن حوادث تاريخية أخرى فيها من الشبه والتقارب ما يجملنا نمدها والحوادث المشابهة لهـا ممثلين عديدين الصنف واحسد من الحوادث تكرر التاريخ في أشخاصهم إلى حد ما في الأقل؟ إن الأزمة التي ظهرت في التاريخ الأمريكي في شكل الحرب الأهلية ، قـــد كررت دون ريب ويشكل مهم في الأزمــة المعاصرة التي حدثت في تاريخ المانيا وذلك في حروب بسيارك بين عامي ١٨٦٤ و١٨٧١ . ففي كلتا الأزمتين كان الاتحاد السياسي غير المتكامل عدد بالانحلال التام. وفي كلتا الأزمتين كانت الحرب هي الفيصل بين انحلال الاتحاد وزواله ، وبين إقامته على أسس متينة وبشكل قوي . وفي كلتا الأزمتين كان النصر حليف أصحاب فكرة الاتحاد القوى ، وفي

<sup>(</sup>١) يقصد الحرب الأهلية في الولايات المتحدة .

كلتا الأزمتين كان أحد أسباب انتصارهم أنهم قد فاقوا أعداءهم فنما وصناعيا ، وفي كلتا الأزمتين أيضاً كان يتسم انتصار قضية الاتحاد توسع" صناعي "هائسل أحال كلا من الولايات المتحدة ورايخ ( دولة ) ألمانيا الثانية في مــا بعد الحرب إلى منافسين صناعيين هائلين لبريطانيا العظمى . وهنا نكون قد وقفنا على مثل آخر لتكرار التاريخ. ففي القرن المنتهي في حوالي عـام ١٨٧٠ ربمسا بدت الثورة الصناعية في بريطانيا العظمى حادثة تاریخیة فریدة ، ولکنها قد أصبحت تبدر منذ عام ۱۸۷۰ علی حقيقتها ، وهي أنهسا مجرد أول مثل للتحول الاقتصادي الذي كان مقدراً له أن يحدث آخر الأمر أيضاً في عــدد من البلدان الغربية الأخرى وفي بعض الدول غير الغربية أيضاً.وفوق ذلك، فإننا إذا حو"لنا انتباهنا من الجانب الاقتصادي العام في التصنيع إلى الجانب السياسي العام في الوحدة الاتحادية Federal Union رأينا أن تاريخ الولايات المتحدة والمانيا في هـذه النقطة يتكرر مرة أخرى في تاريخ بلد ثالث ــ وهو في هذه المرة ليس بريطانيا العظمى وإنما كندا، التي دخلت المقاطعات المكونة لها في اتحادها الحالى عام ١٨٦٧ ، بعد سنتين من إعادة إقامة وحدة الولايات المتحدة عام ١٨٦٥ من الناحية الفعلية . وقبل أربع سنوات من تأسيس رايخ (دولة) المانيا الثانية عام ١٨٧١ » .

« ونحن نجد أيضاً في ظهور عدد من الدول الاتحادية في العالم الغربي منذ وقت قريب ، وكذلك في تصنيع هسده الدول

وغيرها، برهاناً على أن أحداث التاريخ تتكرر، إذ نرى أن العمل الذي قام به البشر في زمن نماض قد جاءت له أمثلة تكاد تكون معاصرة . إلا أرن معاصرة الأمثلة المختلفة لبعضها أمر تقريبي فقط. فالثورة الصناعية التي قامت في بريطانيا ، وكانت حادثة فريدة دون ريب ، قبل أن تقوم في أمريكا والمانيا بما لا يقل عن جيلين ، ثبت أنها ظاهرة متكررة ، والولايات المتحدة التي لم تكن قبل الحرب الأهلية محكمة الترابط قد يقيت سبعاً وغانين سنة ، والاتحاد الالماني الذي كان متداعياً بعد حرب نابليون قد بقى هو أيضاً نصف قرن قبل أرب تبرهن الحوادث الحاسمة الخطيرة التي وقعت في العقد السابع من القرن التاسع عشر علىأن الوحدة الاتحادية كانت شكلا متكرراً 'قد"ر له' أن يحدث لا في كندا وحدما بل في استراليا أيضاً وجنوب إفريقيا والبرازيل، (١) ان النفير في الطبقة العلما لا يستوجب حتماً أن يكون ممثلا للتغير في الداخل. وإن قافسلة المدنية التي تقدمت من الكهوف المظلمة إلى العيارات الهائلة ، ومن ركوب الحير إلى الطيران في الجو ، ومن حالة العري التام إلى ملابس زاهية ذات أجمل تفصيل، هذه القافلة المتقدمة تمثل حقيقة جوهرية واحدة فقط: فقد كانت تحدوها في تقدمها رغبة قوية في التحرّي وإعادة البناء ، وإن هذا الميل في ذهن الإنسان هو الذي قاد الإنسانية خلال العصور ـ

<sup>(</sup>۱) المصدر نفسه ، ص ع ۳ - ۳۰ ، ۳۰ - ۲۳ .

من المصر الحجري إلى المصر الحديث ذي الإنتاج الرأسمالي .

لقد حصل دون ريب تقدم كبير في الفن والأدب وفي العلم والفن الصناعي، ولكن لم يحصل قط أي تغير في طبيعة الإنسان فإن روح المنافسة التي كانت تجعل القبائل في عصور ما قبل التاريخ تصطرع اصطراعا رهيباً لا تزال تتغلغل في ذهن الإنسان الحديث وهو مشغول في اختراع أسلحة الدمار لإبادة البشر من فوق سطح هذا العالم . إن قيصر قد قتل منذ زمن بعيد ، ومع ذلك فالنزعه القيصرية لا تزال ترعب الإنسان . وكل من ينظر أدنى نظرة إلى الاتجاهات الحديثة في التاريخ سيسلم بأن الظلم والثورة ، والازدياد المطرد في عدد الذين ينالون تدريجيا مزيدا من الحقوق السياسية في داخل المجتمع وخارجه أمور تتكرر في تاريخ الإنسان حق هذه الآيام . فالعقلية التي تسيطر على الإنسان الطديث هي نفسها لم تتغير ، وإذا كان من فرق فهو فرق في السرعة والتكون .

إن لكل حضارة روحاً خاصة بها تظهر في وجوه المدنية المديدة . وهذه الروح يمكن أن تضعف ، ولكنها لا يمكن أن تموت . إن قسانون تناسخ الأرواح يفعل فعله في الحضارات . فالمدنيات تولد ثم لا تلبث بعد حسين أن تندثر ، ولكن روح الحضارة تتخذ ثوب أية مدنية أخرى ثم تسيطر على العالم .

وسنبدأ في تشريحنا هذه الحركة الدورية للحضارة بدراسة الفنون الجميلة ونظام الحقيقة والأخلاق والقانون . الفنون الجميلة مرآة بالغة الإحساس منمرايا المجتمع والحضارة اللذين تكون هذه الفنون أجزاء مهمة منهها. فكما يَكُنُ المجتمع والحضارة تحكن فنونهها الجميلة . ولنعط صورة أو لية موجزة لنوعي الفنون . النوع الديني ، والنوع المادي الحسي .

فالنن الديني في محتواه ونوعه يقرر الفرضية الكبرى في دالحضارة الإلهية ، وهي أن القيمة الصادقة حقاً هي الله . وهي تعتبر الإنسان خليفة الله على الأرض ، لذا فهي تؤكد على الجانب النبيل من الإنسان . إنه فن يتعمد الإعراض عن كل ما هو خسيس وحقير وقبيح ، والإقبال على كل ما هو شريف وسام وجميل . بينما لا يمثل الفن المادي الحسي غهير الحواس : إنه يمثل الجانب السفلي من الإنسان إذ هو يمجد كل شيء دنيء سافل ، وأبطاله بصورة عامه م البغايا والمجرمون والمنافقون والخبثاء ذوو المكر والحيلة ، وليس لهذا الفن من هدف غهير والنافة و الكسل و إثارة الأعصاب المتعبة ، والتسلية واللذة والمتعة ، والتسلية واللذة والمتعة ، والتسلية واللذة والمتعة ، والتسلية واللذة والمتعة ،

لذا فحيثا ذهبت الحضارة الحسية تبعتها فنونها الجيلة . وكل الأمم التي نمت عندها (النظرة المادية) للحياة نمت فنها بالشكل نفسه . لذا فقد كان هـذا الفن و الشكل السائد من الفن عند إنسان أو ائل العصر الحجري المتوسط في كثير من القبائل البدائية

P. A. Sorokin, The Crisis of Our Age, P. 32

كقبائل بشمان الإفريقية وقبائل هندية واسكينية (١) كثيرة وأشباهها . وقد تغلغلت في الفنون الجميلة للدولة الآشورية وأبعض فترات تاريخها في الأقل وفنون مصر القديمة في العهود الأخسيرة للمملكة القديمة والمملكة الوسطى والامبراطورية الجديدة ولا سيا في فتراتها الأخيرة وأي عهود سائس (٢) وعهد البطالسة (٣) والعهد الروماني . وقسد كانت دون ريب طابع المهد الأخير المعروف من الحضارة اليونانية من القرن الثالث قبل الميلاد وحق القرن الرابع بعد الميلاد، وأخيراً فقد كان هذا الفن

<sup>(</sup>١) Scythian وهي قبائل متوحشة كانت تسكن في منطقة البحر الأسود وجنوب بحيرة قزوين, وقد تكون ذات صلة بالروس الذين أطلق عليهم العرب اسم الصقالبة , وقسد دخلت هذه القبائل في حروب كثيرة مع الآشوريين والحيثيين , وكان آخر عهد بهم حروبهم مع الملك آشور بانيبال في حدود سنة (٣٠٠) قبل الميلاد وفي منطقة كليكيا حيث قضى عليهم ,

<sup>(</sup>٢) سائس Sara مدينة قديمة على دلتا النيل تولت الزعامة في غرب الدلتا في القرن الثامن قبل الميلاد . أصبحت عاصمة مصر على أيام السلالة السادسة والعشرين .

<sup>(</sup>٣) البطالسة جمع بطليموس. وهم حكام مصر من السلالة الاغريقية المصرية التي حكت ما بين سنة ٣٢٣ وسنة ٣٠ قبل الميلاد. وأول همذه السلالة بطليموس الأول الذي عاش ما بين ٣٦٧ ؟ وه ٢٨ قبل الميلاد. وقد أصبح ملكا على مصر بين ٣٢٣ وه ٢٨ قبل الميلاد، وهو الذي أسس مكتبة الاسكندرية. وآخر هذه السلالة الملكة كليوباترا الشهيرة التي عاشت ما بين سنة ٢٩ و ٣٠ قبل الميلاد. (المترجم)

هو السائد في المجتمع الفربي في القرون الخسة الأخيرة ، (١) .

أما الفن الإلهي الذي يمكن أن يطلق عليه اسم و الفن المعبر عن فكرة و فكان قد سيطر في بعض الحقب من الزمن على الفن في حضارة الصين التاوية Taoist - China والتبت والحضارة البوذية وحضارة مصر القديمة وعلى الفن في حضارة اليونان من القرن التاسع حتى نهاية القرن السادس قبل الميلاد وكذلك على الفن في حضارة الغرب المسيحي في أول عهده وفي عصوره الوسطى وغير ذلك و (٢).

و ومهما اختلفت الفنون الجميلة ، مثلاً عند الشعوب البدائية والمتمدنة ، اختلافاً من وجوه كثيرة ، فإنها كلها تعرض للناظر سلسلة من المميزات الداخلية والخارجية المتشابهة حين تكون كلها منتمية إلى نوع واحد . وهذه الحقائق تعني ، في ما تعني ، في ما تعني أن غلبة هذا الشكل أو ذاك في الفنون الجميلة ليس قضية وجود المهارة الفنية أو عدمها ، وإنما للنظرة الخاصة التي يتخذها كل شعب من زمن إلى آخر ، (٣) .

وهذا هو الحال أيضاً مع نظام الحقيقة والمعرفة ، فأي نظام للحقيقة والواقع المحسوسين يعني إنكار أية حقيقة أو قيمة تفوق

<sup>(</sup>١) المصدر نفسه ، ص ه ٣ .

<sup>(</sup>٢) المصدر نفسه ، ص ٤٣.

<sup>(</sup>٣) المصدر نفسه ، ص ه ٣ .

الطاقة الحسية، أو النظر إليها نظرة عدم مبالاة تامة. إن الثقافة المادية الحسية ترى البحث في طبيعة الله وفي كل ظاهرة تسمو على الحس ضرباً من الخرافة أو دراسة عقيمة ... فإذا كان لا بد من اتباع الدبن فللغايات الدنيوية فقط ، وإذا ما 'قبيلت' فإنما 'تقبل كا 'تقبل الهوايات الكثيرة. إن نظام الحقيقة هذا يدعو بقوة إلى دراسة العسالم المحسوس بخواصه وعلاقاته الغيزياوية والكيمياوية والاحياثية ، وقد ركزت فيه كل مطامح الفكر على دراسة هذه الظواهر المحسوسة في ماديتها وما يلحظ من علاقاتها ، والمخترعات الصناعية الفنية التي تهـــدف إلى خدمة حاجاتنا المادية الحسية. فهذه النظرية مادية في كل جوانبها، وهي تنظر إلى كل شيء بصورة صريحة أو مستورة ، تنظر إليه من نواحيه المادية . . والميزان الوحيد بين الصواب والخطأ والفضيلة والرذيلة هو إما المنفعة الحسبة أو الملذات الحسبة . أمـــا نظام الحقيانة السهاوي فيؤمن بالقـم الأخلاقية التي تمثل أهدافاً . وهو ينظام مبني على الوحي والإلهام الرباني ، ولذلك فهو موثوق بسيه و صورت أموراً منسقية يقتضيها العقل ابل إن لها معنى وغرضاً معيناً واضحاً . وهي ليست مقيدة بالوقت والظروف، وإنما هي شيء أبدي ثابت لا يتغير.

إن دراسة التاريخ دراسة موضوعية ستكشف كيف أن كلا من أنظمة الحقيقة هذه قد مرت عليه أدوار متعددة ساد فسها .

و إن الحقيقة الحسية للحضارة الكريتية الميسينية (١) قد أفسحت المجال للحقيقة المعبرة عن فكرة لكي تظهر في اليونان بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد . وهسنده أيضاً قد أزاحتها الحقيقة الحسية التي جاءت بها الفترة الواقعة بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الرابع بعد الميلاد، والتي تبعتها الحقيقة المعبرة عن فكرة وهي الحقيقة التي جساءت بها المسيحية ، وذلك في الفترة الواقعة بين القرن السادس ونهاية القرن الثاني عشر . وفي القرن الثالث عشر سادت الحقيقة المعبرة عن فكرة على كل مسالقرن الثالث عشر سادت الحقيقة المعبرة عن فكرة على كل مسالسادس عشر حتى يومنا هذا . لذلك فبدلاً من التيسار التقدمي المستقيم المزعوم للحقيقة الحسية في عصور التاريخ كافة ، نشاهد المستقيم المزعوم للحقيقة الحسية في عصور التاريخ كافة ، نشاهد المسلة من التذبذب من نظام سائد إلى نظام سائد آخر » (٢) .

إن الحركات الدورية في مجال الفن والأدب، وفي نظام الحقيقة والعلم والفلسفة والدين، برهان كاف على أنه بالرغم من أت تغيرات عديدة قدد حدثت في مدنيات العالم وأن المدنيات تنشأ وتنهار، فإن الحضارة التي هي روح المدنية قدد تكررت في

<sup>(</sup>۱) نسبة إلى جزيرة كريت وإلى مدينة ميسينه Mycenae الاغريقية القديمة الواقعة في بياوبونيس الشالية الشرقية , والحضارة الميسينية هي التي وجدت في اليونان وكريت وآسيا الصغرى مسا بين ١٠٠٠ و ١١٠٠ قبل الميلاد . (المترجم)

<sup>(</sup>٢) المصدر نفسه ، ص ع ٠٠٠ .

التاريخ مرات كثيرة ، والمدنيات المتعاقبة التي حليّت فيها هذه الروح قـــد أنتجت نوعاً واحداً من الفلسفة والدين لا غيره في المراحل المختلفة من تاريخ البشرية .

ربما و جدت بعض أوجه اختلاف لما بين البيئات الطبيعية التي تولد فيها كل مدنية من اختلاف ، ولكن التيار الذي يسيس المدنية يبقى نفسه . فالمظهر الذي تتخذه الحضارة المادية الحسية مدني حستي ، سواء كانت الفترة هي القرن الخامس أم القرن العشرين ، وسواء كانت البلاد بلاد العرب أم انكلترا أم أمريكا.

هذه المدنية التي ترتكز على قاعدة مادية بحتـة والتي تتخللها منذ البداية روح اللذة الحسية ، قد سيطرت على العالم غير مرة ، وكانت مبادئها الرئيسة دائماً ﴿ هذا العالم وحده . . واللادينية » . هذه الحضارة الحسية في نسيجها قسد قامت بأدوارها مرات

كثيرة في تمثيلية الحياة البشرية. ونحن نرى مما نعرف من التاريخ أن أول من مَشَلَ هـنه الحضارة هم وقوم عاد ، في جزيرة العرب ، فإن طراز حياتهم يظهر بجلاء أنه كانت توجهه المادة وحدها. وقد أكل التنازع على المصالح قلوب أبنائها وبنائها كلهم تقريبا، واندفعوا اندفاعاً جنونياً في محتى التسابق على جمع المال والاستزادة من الملذات . ثم أعقب ذلك انهيارهم ومجيء قوم تحرين على مسرح العالم هم وقوم ثمود ، في قوة وحماس جديدين. وكانت آفاق فكرهم مكسوة بلون المادية المظلم ، فلم يكن خيالهم يتسع قليلا لأن يفكر في أن وراء هـنه الحياة حياة أخرى . لذا فقد كان نشاط هؤلاء القوم وعملهم موجها أولا وآخرا نحو الحصول على وسائل الراحة الدنيوية .

وقد أحرز الرومان في هذا المجال تقدماً كبيراً ، فقد طفت على حياتهم الفلسفة المادية الحسية للحياة ، والأخلاق الحسية والسلوك الحسي والتقاليد الحسية . وقد سمح النظام الاقتصادي الجائر جداً ، الذي كان سائداً في ذلك العصر ، بأن يقوم توف القيلة وثراؤها على فقر الكثرة وشقائها. وكانت أية محاولة لتغيير هذا النظام والتخفيف من عدم المساواة والجور الذي فيه ، تقابل بالقمع . وكان الاحتقار نصيب كل عبارة في القانون الديني المتعلق بالأخلاق .

كان الدين يأمر الناس بالفضيلة والرحمة والصدقة والعطف ،

ولكنهم كانوا يجدون متعة في ما يأتونه من قسوة، وكانوا يمجدون كبرياءهم ويقيمون استعراضاً لأعمالهم الوحشية !..

وبعد مرور الزمن ، انهار صرح المدنية الزاهر هذا كا ينهار بيت من الورق، وقد أقامت المدنية الحديثة بنيانها على أنقاضه. وفي كلتا المدنيتين نجد أن شهوة السلطان والثروة هي نفسها .

« إن الأوروبي السوي — سواء كان ديمقراطيا أو فاشيا ، رأسماليا أو بلشفيا ، عاملا يدويا أو مفكرا — يَعْلَمُ دينا إيجابيا واحداً هو عبادة التقدم المادي ، والاعتقاد بأنه ما من هدف في الحياة سوى جعل هذه الحياة تزداد سهولة و يسرا ، أو بالتعبير الشائع — ( تكون مستقلة عن الطبيعة ) » .

أما معابد هسذا الدين فهي المعامل الضخمة ، ودور الصور المتحركة ، والمختبرات الكيميائية ، وقاعات الرقص والمعامل الكهربائية . وأمسا قسسها فهم أصحاب المصارف والمهندسون ونجوم السينا ومديرو الصناعات وأبطال الجو .

إن النتيج ـــة الحتمية لهذا الاندفاع الأهوج وراء السلطان والملذات ، إنما هي إيجاد جماعات متمادية متسلحة بكل سلاح ومصممة على أن يسحق بعضها بعضا ، متى ما تصادمت مصالح أي منها بمصالح الآخرين وحيثا تصادمت. وكانت النتيجة ــ من الناحية الحضارية ــ أن أوجد نوع من البشر تقتصر الأخلاق عندهم على مسألة النفعية العملية وحدها ، وأسمى ميزان لديهم

يفرقون به بين الخير والشر" هو ( النجاح المادي ) (١٠ . وقد أدى ذلك إلى أن صار تقدم المعرفة الإنسانية مصيبة على الإنسانية المريضة ، بدلاً من أن يمنحها الراحية . فالقوى التي وضعها العلم بيد الإنسان الحديث تجعل الاستجابة لها دائماً تهديداً لكل مقومات المدنية .

فروح القومية لا تغرس الحب بين الأفراد والتعاون بين الأمم، بل هي موجبهة نحو زيادة العظمة والعزة القومية ورفع المكانة القومية . والذي يؤسف أن تصور الأمة لنفسها أنها قانون مقدس، وأنه يجب ألا يسمح لشيء مسا أن يتمرض لسياستها بالإصلاح . فالحق هو ما يؤدي إلى منفعتها، والفضيلة مسا يعود عليها عمله بالنفع . وكم كان الرئيس الامريكي روز فلت مصيباً عليها عمله بالنفع . وكم كان الرئيس الامريكي روز فلت مصيباً حين قال : وإن الشعوب والأمم البريئة يُنضَحَى بها الآن بقسوة إشباعاً لمطامع السلطان والسيادة الخالية من كل معنى من معاني العدالة والرحمة الإنسانية » .

فالملذات الحسية ووسائل الراحة الدنيوية وحدها تحكم عقل

Muhammad Asad, Islam at the Crossroads, p. 56. (\)

وقد تجد نصاً مشابها في ص ه ٤ – ٣ ٤ من الطبعة الرابعة من الترجمسة العربية للدكتور عمر فروخ ، التي نشرتها في بيروت – دار العلم للملايين – عام ه ه ٩ ٩ ، بعنوان « الإسلام على مفترق الطرق » ، تأليف محمد أسد .

( المترجم )

الإنسان الحديث ، وهو من أجل الحصول على الملذات ووسائل الراحة هذه لا يعرف قانوناً ولا عدلاً ولا فضيلة .

هذه هي روح الحضارة التي تشرّبت بها مدنيات مختلفة وأنتجت شبها بينها من حيث التكوين. فقرَّما وعاد ونمود وشعوب الرومان واليونان والأوروبيون والأمريكيون في أيامنا هذه ، قد اتفقوا في الأمور الجوهرية من الحضارة إن لم نقل في تفصيلها. فهم جميعاً ينظرون إلى الحياة من زاوية واحدة بعينها الا وهي زاوية المصلحة المادية.

ولننتقل الآن لحظة إلى بعض المشكلات الأساسية التي تتعلق بالحياة الإنسانية ، لنرى كيف كانت هذه المشكلات تبرز مرة بعد أخرى لتحتل مكان الصدارة بين المشكلات كلها ، وكيف كان يعالجها الأفراد المختلفون الذين يمثلون حضارة واحدة ، معالجة متاثلة في الروح والأسلوب . خد مثلا لذلك العلاقة بين الفرد والمجتمع وراقب حركاتهما الدورية .

لا جسدال في أنه لم يكن في العصور البدائية كيان سياسي منظم ، ولكن ذلك لا يعني أنه لم يكن حينسذاك كيان على الإطلاق، وأن الفوضى كانت وحدها تسيطر على المجتمع. فشكل النظام الاجتماعي الذي كان سائداً آنئذ يمكن أن يكون بدائياً ولكن لا يكن أن يُنكر أنه كان موجوداً ، وأن الأفراد كانوا يعيشون وفق مبادىء معينة وضعها ذلك النظام، وفي هذا النظام يعيشون وفتى مبادىء معينة وضعها ذلك النظام، وفي هذا النظام كان الفرد يتمتع مجرية غير مقيدة ، وأن النسيج الاجتماعي كان

أضعف من أن يقاوم قوة إرادة الفرد. هذه المرحلة من مراحل سيطرة الفرد على المجتمع ، تطوّرت بعد مدة إلى مَلككية أصبح فيها الفرد عبداً ذليلا لمستبد يمثل الدولة كلها في شخصه وحده. وهكذا بدىء بتضحية حياة أفراد الرعية وأملاكهم بجرية قامة في سبيل الدولة.

وسارت الأيام ، وظن أكثرنا أن هذه المشكلات لن تعود ، ولكن حوادث التاريخ التي تلسّت أثبتت آخر الأمر أن الحال غير ذلك، بل لقد لاحظنا في هذا القرن رقاص حقوق الفرد على الدولة يتأرجح من جهة إلى جهة. فالمبادىء الجوهرية للديمقر اطية الحديثة تعطي الفرد حرية لا حدود لها في التمتع بالحقوق.

فقد كتب ( جون ستيوارت مل John Stuart Mill ، إذ قال : و لا بد" للبشر أن يراعوا في عن الحرية قولاً ذا شأن ، إذ قال : و لا بد" للبشر أن يراعوا في سلوكهم بعضهم مع بعض قواعد عامة في أكثر النواحي ، لكي يعرف الناس ما يجب أن يتوقعوه ، ولكن الفرد 'حر" في أن يأتي من أعاله الشخصية ذات البواعث الداخلية الخاصة ما يشاء، وعكن أن يقدم له الآخرون آراء تساعده في الوصول إلى حكم صحيح ومواعظ تقو"ي إرادته ، بل قد 'تفرض عليه دور أن يطلبها ، ولكنه هو نفسه الحكم الفصل في الموضوع ، وكل يطلبها ، ولكنه هو نفسه الحكم النصح والتحذير – أقل الأخطاء التي 'يحتمل أن يقوم بها – رغم النصح والتحذير – أقل بكثير من الشر الذي يأتي به السماح للآخرين بإكر اهه على القيام بما يعتقدون فيه الحير له » .

وكانت عاقبة هدد. الحرية غير المحدودة التي يتمتع بها الفرد في النظام الديمقراطي وخيمدة . فهو حر" في أن يدوس حقوق إخوانه الضعفاء ، وهو حر في أن يستغل موارد البلاد لفائدته الشخصية ، وليست الدولة غير عبد رقيق للأفراد .

وبعد هذه التجربة المؤسفة في مجال الديمقراطية ، ظهر مرة أخرى رد قعل ، فقد تجلى بعد وقت قصير أن شعار «كل فرد يعمل لمصلحة نفسه » لا يصلح قاعدة لمجتمع طيب راض ، وأن الشقاء الذي أحدثه تطبيقه عمليا أد ًى إلى سياسة تدخل الدولة لا في الأعيال الصناعية والاقتصادية وحدها ، وإنما في كل شعاب الحياة الإنسانية . فالفاشية والشيوعية تحكمان العالم الآن وفي ظل هذين النظامين سلمت سلطات لا حدود لها بيد الحكومة التي يسيسرها شخص واحد أو بضعة أفراد قلائل .

إن على الدولة القومية أن تعمل بلا كلل ، لأجل أن تجمل كل الحكومة - لا سيا رأسها ، أي القيادة السياسية - غير مقيدة بمبدأ سيطرة الأغلبية (أي الجمهور) لكي تضمن الحكم المطلق للفرد (أي الزعيم القوي) بدلاً منها. يجب أن لا تكون هنالك أغلبية تضع القرارات ، وإنما جماعة من المسؤولين فقط ، وتعود كلمة (مجلس Council) إلى معناها القدديم (1).

<sup>(</sup>١) المهنى القديم : هر جماعة مجتمعة من الناس لا أكثر ولا أقل . بخلاف المهنى الله ين الذي معناء تحمل مسؤولية التشريح كا في مجلس الأمة . (المترجم)

ويكون لكل رجل مستشارون يجانبه ، ولكن القرار يتخذه ( رجل واحد ) . فها يقرره هنـــلر صحيح ، وسيبقى صحيحاً مدى الدهر كا صراح ( الهر فرك Herr Frick ) وزير داخلية المانيا مرة : ﴿ إِنْ أَدِّيتَ فَرضَ هَمْلُ عَلَمُكُ فَقَدِهُ أُديتَ فَرضَ المانيا عليك، وإن أديت فرض المانيا عليك فقد أديت فرض الله علمك » . أمسا الشيوعية فقد تقدمت الدولة فيها خطوة أخرى في السيطرة على مصائر الناس. فهي جماعية من أولها إلى آخرها إذ أن الأفراد فيها إنما يوجدون في الأساس من أجل الدولة. سم" رثيسها بأي اسم، ولكن سلطاته ليست بحال ما أقل من سلطات هتلر أو موسوليني . إنه يزعم لنفسه الكلمة النافذة في كل مـــا يجول بخياله ، وذلك الخيال يتخبط من جهة طرف الجمهوريات السوفياتية إلى الطرف الآخر . وإن هتلر وستالين وجهان لنفس الشخصية السياسية ، والفاشية والشيوعية جانبان لمبدأ التنظيم السياسي نفسه . فإذا كان نابليون بونابرت قد عاش في التاريخ بما كانت تنسيجه الشرطة من مؤامرات ، وإذا كان ملوك المسلمين في العصور الوسطى قد حكوا في ظلال الحراب ، فـإن ستالين أيضاً يستطيع دون ريب أن يستخدم شرطة الأمن السرية التي استخدمها لإيقاع ضحاياه في مهاو سوداء من اليأس.

إن مثلًا عن العلاقة الجنسية بــــين الذكر والأنثى سيوضح مقصدي إلى حد بعيد جداً .

كانت هذه العلاقية في أشد عصور التاريخ الإنساني بداءة

تشبه علاقة الحيوانات شبها تاماً. كان كل امرىء يتمتع بالحرية الكاملة في إشباع نهمه الجنسي من الفرد ذي الجنس الآخر. ومرت الأزمان فظهر نظام الأسرة في المجتمع ، ونشأ معه نظام الزواج الذي فرض قيوداً كثيرة على ( الحرية ) التي كانت موجودة . ثم ازدادت الأسرة مع الأيام قوة ، ولكنها أصيبت بعد مدة بنكسة خطيرة وكان هـنا أيضاً على يد فيلسوف لا يقل في وزنه عن أفلاطون الذي اقترح أن يجمع كل الأصحاء من الرجال والنساء في مكان ما في وقت واحد ويسمح لهم بالاتصال الجنسي . وكان يعتقد أنه بهذه الطريقة سوف لن يقصر الأطفال حبهم على رجل يعتقد أنه بهذه الطريقة سوف لن يقصر الأطفال حبهم على رجل أو امرأة معينين ، بل سير تبطون بالجيل كله وبالدولة برباط الحب ارتباطاً أبدياً . ولم يمض زمن طويل حتى ظهرت للناس النتائج القتالة لهـنا العمل السخيف فحاولوا أن يقو وا نظامي الزواج والمائلة .

وقد كانت السنون الثلاثون الأخيرة ملأى بالحوادث في هذه الناحية و ففي السنين العشرة الأولى من الإدارة البلشفية كان الفهم السائد عن الاتصال الجنسي أنه مسألة " شخصية "، تحدث بوافقة الرجل والمرأة سواء اتفقا أو اختلفا في العنصر أو اللون أو الدين ، وهو عمل لا يحتاج إلى القيام بشعائر دينية أو غيير دينية، وحق التسجيل الرسمي لهذا الاقتران أمر اختياري تماماً».

 السنين الأولى التي تلت الثورة. فقد كان يماف الفكرة التي ألقيت إلى الناس في الأيام الأولى من الثورة والتي تقول لهم إن الاتصال الجنسي عمل طبيعي تماماً كالأكل ، وليس فيه شيء ينتقد أكثر مما في تناول قدح من الماء عند العطش. وبصورة تدريجية أصبحت نظراته إلى الالتزامات الاجتماعية التي تنشأ عن الاتصال الجنسي هي النظرة المعتمدة لدى الحزب الشيوعي .

ولقد كتب ريازانوف Ryazanov ما يلي : « هـل الزواج علاقة خاصة بـــين حيوانين يمشيان على رجلين وأمر يخصها وحدهما ، ولا يحق للمجتمع أن يتدخل فيه ؟ إننا يجب أن نعلتم شباب الشيوعيين أن الزواج ليس عملا شخصياً بل عملا ذا أهمية اجتاعية عميقة » . وقال سولتس Soltz : « إن للزواج جانبين الجانب الخاص و الجانب الاجتاعي ، ويجب أن لا ننسى قط الجانب الاجتاعي ، إننا لا نريـــد أن تكون الحياة خليمة أو فاسدة لا نظام فيها ، لأن ذلـك يؤثر على الأطفال » (١١) . وهكذا تعود الماثلة ونظام الزواج ليسودا في المجتمع مرة أخرى .

والتاريخ يخبرنا أنب حق الديمة راطية ونظام الحكم النيابي الذي يبدو لنا أنب نتاج العصر الحديث، تكن نواته في أعماق عصور ما قبل التاريخ.

Sidney & Beatrice Webbs Soviet Communism: A New (1)
Civilization, P. 849

إن دوران الحضارات هذا مع المشكلات التي ترتبط بها يقرر آخر الأمرأنه بالرغم من أن المدنيات قد ولدت وماتت ، فإن الحضارات لم يطرأ عليها تغيّر مهم . قد يحصل تحوّل في المبدان الذي تسيطر فيه ، ولكن الروح التي تتجلى في كل الميادين والجمالات هي روحها نفسها، فإن عملية حلول الروح تعمل عملها في الحضارة . إن في وسم أية جماعــة من الناس في أي دور كانوا أن يتجهوا أي اتجاه فكري . . سواه كان اتجاه النفعية أو غيره ٢ ويستطيعون أن يصوغوا حياتهم تبعاً له . وبما أن طبيعة البشر لا تزال نفسها لم تتفير ، على تقلب الزمن ، لذا فمسكلاتها هي المشكلات القديمة نفسها، ومها حصل من تغير فهو في العالم المادي فقط. إن ظاهرة توالي الليل بعد النهار والنهار بعد الليل.. هذه الظاهرة المألوفة لا تقتصر ملاحظتها على الكرة الأرضية، بل هي نفسها موجودة، ويمكن ملاحظتها حتى في الحضارات والمدنيات. فكا أن أقساماً من المالم يغطيها ظلام الليل ، كذلك في هدا العسالم بلدان وأمم تفطيها أجنحة الحضارة الحسية المخيفة . وكا يأتي فجر الصباح بعد الليل، كذلك يأتي بعد ذلك فجر الحضارة الممبرة عن فكرة. إلا أن اختلافًا مهمًا واحدًا يجب أن لا يفوتنا ذلك أنه مهما يحدث في المالم المادي فإنسه يظل مطيعاً لقانون الطبيعة الثابت الذي لا فكاك له منه، فالطبيعة تسير في طريقها سيرا آليا ، أما أعيال الإنسان فليست كذلك . إنه قد أعطي حرية في الإرادة ، فهو يستطيع أن يختار وينتخب ويقبل أو

يرفض وفقاً لمسايرغب فيه . لذا فإذا ازدهرت الحضارات أو سقطت، فذلك كله لالتزام أتباعها بها أو تخليهم عنها. ولا يمكن تعيين لحظة معينة نقول أنها كانت نقطة تقدمها أو انحلالها . إذ أن الجهد الأخسلاقي الذي يبذله الناس هو الذي يقرر تقدمها والنجاح إنما تصيبه تلك الفئة من الناس التي تتمثل فيها الفضيلة والعدالة بأكبر نسبة ، ولكن الفضيلة والعدالة هاتين لا يمكن الحصول عليها إلا يجهد واع يتطوع ببذله الأفراد الذين يكو ون فئة اجتاعية .

إنه لمن سوء حظ البشرية أن أصبح الإنسان « بالتمريف العلمي المادي ، مجر د مركب معقد من الكهير بات والبروتونات ، أو مخلوقاً حيوانياً ، أو جهازاً ذا انعكاسات أو مجموعة متنوعة من العلاقات بين الحوافز والاستجابات ، أو جعبة تحليل نفسي مملوءة "بالدوافع النفسية » . ووفقاً لهيذا اعتبرت أعضاء الحس الجاسية الناقصة الحكم الفصل بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي ، وبهذا انحط الإنسان إلى مجر د آلة ذات أعضاء حية . ومن هنا استنتجوا أن حياة الإنسان أيضاً يحكمها قيانون الولادة والموت نفسه الذي يحكم حياة الحيوان . ونتيجة لذلك فيان ما عنفوانه ، وأنه لا مندوحة لما كان متجها نحو الهبوط والانحلال عنفوانه ، وأنه لا مندوحة لما كان متجها نحو الهبوط والانحلال والاقتراب من النهاية من أن تقل قوته ويوت آخر الأمر .

إن هــذه النظريات جميعًا لا تقوم على أساس لأنها مبنية على

التشسه يتركس الكائنات الحية . إذ أن الإنسان ليس حيواناً مجرداً ، وإنما هو أكثر من ذلك بكثير ، إذ أن لديه الإرادة التي تدفعه إلى العمل ، وله الضمير الذي يرشده . لذا فلا يوجد قانون موحــــد يستلزم أن تمركل حضارة وكل مجتمع بمراحل الطفولة والنضج والهرم والموت نفسها . ﴿ وَفَصْلًا عَنْ ذَلَكُ فَمَا مِنْ أَحَسَدُ من أنصار هذه النظريات القديمة جداً قد بَيِّنَ ما المقصود بطفولة المجتمع وهرم الحضارة ، وما خواص كل من هذين الطورين من أطوار العمر ، ومتى ينتهي أحدهما ويبدأ الذي يليه ، وما الذي عبت مجتمعاً مسا وكيف يموت ، وماذا يعني موت المجتمع أو الحضارة. إن هذه النظريات متشابهة تماماً في كل هذه الأمور ، وهيمكوّنة من مصطلحات مبهمة لوحدة لا رجود لها ودعاوى لم يقم عليها دليل » (١) . فكما أن إبـدال المرء بطراز معيشته طرازاً آخر لا يعني أنه مات، كذلك إبدال شكل جوهري من أشكال الحضارة واتخاذ شكل آخر مكانه لا يعني موت المجتمع والمعضارة اللذين أصابها هذا التغيير. إن الخطأ الأساسي الذي وقمفيه هذا العالمالنحرير وأخذ يتخبط فيههو أنه نظر إلى الحفارة نظره إلى آلة عضوية مننوع خاص ليس لها اتصال في أية نقطة بالحضارات التي سبقتها أو تلتها تاريخياً. إلا أن الحقيقة أبعد من ذلك بكثير . إن الحضارة ليست آلة عضوية ، وإنما هي

<sup>.</sup> ٧٤ س ، من ١٤ . P. A. Sorokin (١)

حركة . وفي سجلات التاريخ شواهد وفيرة على أنه حتى حين يثقل الجرى الصافي لحضارة ما ، فإنه نادراً ما يجف ، بل يبقى يؤثر في أفكار الناس الذين يمثلون حضارة جديدة وسلوكهم . ولنقرأ شيئاً من كتاب (بريفو Briffault )المسمى (بناء الإنسانية ... Making of Humanity :

وإن العلم هو أعظم ما قدمته المدنية الغربية للمالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج. فلم يقم العملاق الذي ولدته الحضارة الغربية إلا بعد زمن طويل من زوال الحضارة البربرية (المغربية) وارتكاسها في الظلمات. وقد كان للمدنية الإسلامية مؤثرات أخرى عديدة أوقدت الشعلة الأولى في الحياة الأوروبية إذ بالرغم من أننا لا نجد ناحية واحدة من نواحي رقي أوروبا تخلو من النأثير الحاسم للحضارة الإسلامية ، فإن هـنا التأثير ليس في أي بجال أظهر وأهم من نشوء القوة الدائمة التي تميز العالم الحديث والتي هي أعظم مصدر للانتصارات المتنالية التي يحرزها ، ألا وهي العلوم الطبيعية والروح العلمية .

وإن ما نسميه علماً قدد نشأ في أوروبا عن روح التبع الجديدة وأسلوب التجربة والملاحظة والقياس وعن تطوير علم الرياضيات إلى شكل لم يكن للاغريقيين به علم. هذه الروح وتلك الأساليب كان الذين جاءوا بها إلى العالم الأوروبي هم العرب ».

لم يكن هذا التغير المفاجىء المذهل في الفكر العالمي من غير

سبب كاف. لقد كان مبعثه مؤثرات مستمرة للحضارة الاسلامية كانت تعمل عملها في الآخرين . كان الإسلام حين بدأ عصر النهضة في اوربا قد استنفد قوته ، من الناحية السياسية على الأقل ولكن كان لا يزال فيه من القوة ما يكفي لكي يصور شكل التفكير. فلقد ساعدت نظرة القرآن إلى الحياة أبناء همذا العالم – مسلمين وغير مسلمين – على خلع رداء الخول الفكري. إن تأكيد القرآن على النظر إلى آية الحقيقة الكبرى في (الشمس) و (القمر) وامتداد الظل ، وتوالي الليل والنهار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وتعاقب اليسر والعسر بين الناس ، جعل للمسلمين نظرة جديدة تماماً إلى العالم ، فأخذوا يعتقدون أنه كان متحركاً في نشأته وأنه عالم محدود وقابل للتوسع .

هذه النظرة إلى الحياة أوجدت عدم اقتناع بالفلسفة التي تعتمد على التأمل وحده . فحيثا ذهب المسلمون حملوا معهم هذه الأفكار . فاتخاذ « الشك » أساساً للمعرفة — هذا المبدأ الذي وضعه النظام ، وتوسع فيه الغزالي — أثر تأثيراً في اساساً للموب ( ديكارت Descarte ) وأفكار ( روجر بيكن اسسلوب ( ديكارت Roger Bacon ) وأفكار ( روجر بيكن ( فرانسيس بيكن Roger Bacon ) ، كان قد تعلمها في الجامعات الاسلامية في الأندلس . والواقع أن الفصل الخامس من كتابه Why الناظر ) الذي يبحث في علم البصريات ، هو في الحقيقة نسخة من كتاب ( المناظر ) لابن الهيثم . و كذلك ليس

هذا الكتاب ككل محتاجاً إلى دليل على تأثر مؤلفسه بر ( ابن حزم ) (۱) .

ولم تجرؤ فلسفة غير الفلسفة الاسلامية على أن ترفع رأسها ، أيام كان المسلمون مسيطرين على العالم فكريا وخلقياً وسياسياً . ولكن حين توقف أتباع محمد عَلَمْ الله عن إمداد نظامهم الفكري بغذاء جديد من البحث ، بدأت تترنح شجرة المعرفة السامقة هذه التي امتدت أوراقها إلى كل بقاع العسالم وحملت أغصانها ثماراً ذهبية من الفن والعلم والأدب ، وتمزقت بالعواصف ولكنها لم تمت وظلت تؤثر في سير التاريخ .

ولقد كان من فضل تأثير الاسلام الطيتب أن ترك عبدادة الأصنام حتى الذين تزعموا الدفاع عنها بحماس وقوة . وظهر بين المسيحيين مصلحون كثيرون . . واحداً بعدد الآخر . . سخروا من سلطة الكنيسة وأظهروا عدم إيهانهم بالثالوث . وانحدرت موجة الحضارة الاسلامية هذه تجرف بقوة لا تقاوم ، والعسالم لا يستطيع أن يوقف مده ها بكل ما بذل من المحاولات الهادمة .

إن الحركات الإصلاحية في عصرنا هــــذا قد تبدو في مائة مظهر ومظهر من مظاهره التجديد ، لكن الذين أوتوا بصيرة نافذة يستطيعون أن يروا تيار الاسلم يساب تحتها .

<sup>(</sup>١) Muhammad Iqbal (١) المصدر السابق ، ص ٢٩٩ . وتجسد نصاً مشابها في ص ١٤٨ من الطبعة العربية المشار اليها آنفاً . ( المترجم )

وفي هــــذا الصدد يجدر بنا أن نتذكر أن غير المسلمين هم وحدهم الذين لم يتشر بوا بروح الاسلام ، إذ انه حتى المسلمون قد تعلموا شيئا كثيراً من غير المسلمين . إلا أن طريقة الأخذ كانت تختلف من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان . وما دام و الدين السماوي ، الذي هو كل شيء في هذا الوجود عند المسلمين وغاية ما يطمحون اليه ، وما داموا يقومون بجهود مركزة صادقة لنشره . . وبعبارة أخرى . ما دام هذا الدين باقياً قوة محركة وفيه قوة الحياة وحماسها ، فإنه يستطيع أن يصب أفكار الآخرين في القالب الذي يلائم شكل تفكيره .

لقد كتب مستشرق اوربي قولاً قيماً ، هو : و إن روح الاسلام واسعة جداً حتى انك لا تكاد تعرف لها حدوداً . فإذا استثنينا الأفكار الإلحادية وجدنا روح الاسلام قد استوعبت كل

الأفكار التي كانت موجودة عند الشموب المحيطة بها ووجبهتهم وجهتهم وجهتها الخاصة في التطور والنمو » .

وروح الاسلام الاستيمابية أظهر من ذلك في مجال القانون . يقول البروفيسور (هيرغرونيه Hurgronje) الناقد الهولندي للاسلام : وعندما نقرأ تاريخ تطور الشريمة الاسلامية نجد علماء كل عصر يتهم بعضهم بعضاً لأتفه الاسباب ، حتى ليصل الأمر بهم إلى أن يكفس بعضهم بعضاً ، ونراهم في الوقت نفسه – وهم يحسسون بوحدة هدف لا تفتأ تزداد قوة – يحاولون أن ينهوا ما كان بين أسلافهم من خسلاف يشبه الخلاف الذي بينهم هم أنفسهم » (١) .

ولم تستطع هداه الحال أن تبقى زمناً طويلاً. فحين غفل المسلمون عن رسالتهم في الحياة ، وخمدت في أرواحهم النار المتأججة ، أو قل ، حين جرفت الحياة المادية بضجيجها وعجيجها جموع المسلمين ، وتحو لت أنظارهم عن وجهتهم بفعدل ضغط المطالب الماجلة ، نسوا الغاية السامية ، ففسحوا المجال لحلول عهد انحلال المسلمين وفلسفتهم ، وازداد ركود العالم الاسلامي وضعفت أفكارهم ولكنها لم تقبر قط .

لقد منح الله كل أمة عقلية مبدعة تعتمد حياتها عليها ، فيحين

<sup>(</sup>۱) المصدر نفسه ، ص ۱۹۱ . رتجهد نصاً مشابها في ص ۱۸۹ من المترجمة العربية للكتاب . (المترجم)

تضمف هذه العقلية تنهار الأمة ، ثم يموت أفرادها بعسد عدد من السنين ، ولكن أفكارهم تبقى مخفية في هذا العالم كجذوة النار التي لم تنطفىء بعد ، والتي يمكن إذا حر كست الهواء فوقها أن تجعلها ناراً متوهجة .

إن كل حضارة تولد من بطن الماضي ، وتنمو في أحضان الحاضر. فالعالم لم يشهد قط ظهور حضارة ما فجأة ، من غير أن يكون لها علاقة بالماضي. إن هدا لا يمكن أن يحدث إلا حين يخلق مع مولد كل حضارة جديدة رجال 'جد'د لهم صفات جديدة في العقل والقلب ولهم كذلك غرائز جديدة . وهدذا شيء لم يحدث في الماضي ولا يمكن أن يحدث قط في المستقبل . فإنسان هذا العصر مخلوق من المادة التي 'خلق منها الانسان الذي كان في عصور ما قبل التاريخ نفسها ، وطبيعته لم يحصل فيها تغير جوهري .

ولقد أوضح الدكتور محمد إقبال هذه النقطة بقوله: « يجب أن لا ننسى أن الحياة ليست كلها تغيراً بصورة بجردة وبسيطة ، فإن فيها أيضاً عنساصر المحافظة والصيانة. وإن الانسان وهو يبدع ما يبدع ويوجه داءًا طاقاته نحو اكتشاف آفاق جديدة للحياة ، ليشمر بالقلق أمام ما يكتشفه. وهو في أثناء تقدمه لا يتالك نفسه من أن يلتفت إلى الماضي ويواجه ما حصل له من اتساع داخسلي في نفسه بشيء من الخوف. إن روح الانسان الداخلية تكون في أثناء تقدمها مقيدة بقوى تبدو كأنها تعمل الداخلية تكون في أثناء تقدمها مقيدة بقوى تبدو كأنها تعمل

في الاتجاه المعاكس. وليس هذا سوى طريقة أخرى للقول بأن الحياة تسير وثقل ماضيها على ظهرها ، وأنه عند النظر في أي تغير اجتاعي لا يمكن الإغضاء عن قيمة قوى المحافظة وعملها ، (١).

إن الأخلاق الانسانية مبنية على القيم الخارجية للحياة ، وهي القيم التي ظلت دائمًا نفسها على تقلّب الزمن . وهذه نجدها في طبيعة الانسان نفسها .

من ذلك كله نستنتج أن كل موجهة حضارية تسير سيراً متصلا مع الزمن ، ولكن ما من شك في أن التيار يضعف حين لا يأتيه إمداد على شكل تيار فكري جديد . أما إذا كانت الأفكار الجديدة تتدفق فيه دائماً بقوة فازيده شدة فإنه يستطيع أن يدوم زمنا لا نهاية له .

والخطأ الكبير الآخر الذي وقع فيه (شينكلر Spengler) هو أنه ، مثل هيغل وماركس ، رأى للمجتمع نوعاً من التنظيم وبنى على هذه النظرية قوانين ازدهار الحضارات وسقوطها . إن اكبر أسباب هذا الخطأ هو الخطوات الهائلة التي خطاها العلم المادي في العالم . فلقد كان من أثر التقدم المادي أن صار حتى عامة النساس يعتقدون أنه ليس وراء (المادة) شيء ، وأن

<sup>(</sup>۱) المصدر نفسه، ص ۱۹۱ – ۱۹۷ ، وتجد نصاً مشابهاً في ص ۱۹۱ من الترجمة العربية للكتاب , (المترجم)

إن هذه النظرات عن الحياة الانسانية قد تجاهلت تماماً جانبها الانساني . لقد تصور مفكرو العصر الحديث ، ومنهم (شپنگلر) ، وهم في غمرة الهو س الذي استولى عليهم في سعيهم وراء المعرفة العصرية ، أن المجتمع بجرد جهاز عضوي حي ، وهو كائن يشبه في تركيبه وعمله ووحدته جهاز الانسان ، ولذلك فهو مُعدر "ض لقوانين مشابهة تحكم نمو هما ونضجها وتدهورها ، ولكن أفراد بني الانسان ليسوا ، كا بيتنت آنفا ، بحرد حطام طافي على محيط الضرورة ، يصعد وينزل مع مَد الظ. وف و جز رها الحتميين ، ويندفع هنا وهناك مع تيارات الزمن .

لقد 'منح الانسان الارادة الواعية والقدرة على الاختيار ، فهو يستطيع أن يستغل البيئات لمصلحته الشخصية . لذا فالقوانين التي تسيطر على الانسان – الذي قد أعطيت له حرية الإرادة – يجب أن تكون مختلفة تماماً عن القوانين التي تتعلق مجوانب الحياة العضوية منه .

د إن المادة تسيطر عليها وتسيدها قوانين رياضية وآلية ، وحياة النبات تسيدها قوانين النمو ، وحيساة الحيوان تسيدها الغريزة . أما حين يأتي الانسان إلى المسرح ويبرز العقل ، فإننا نلاحظ انتقالاً من الغريزة إلى الفكر . ومع الفكر يأتي امتيان الانسان وامتحانه وهما الأمران العجيبان جداً اللذان يسميان الإرادة الحرة (١٠). لذا فيجب أن يحكم مصير البشر قانون آخر يختلف عن هذا القانون . والتاريخ مشحون بالأمثلة التي تدل على أن قوة الإرادة في الأفراد قد غيرت مجرى التاريخ ، وأن جهود البشر لم تقف عند النجاح في الأخدذ بيد الحضارات العائرة وإنقاذها من كبوتها ، وإنما تجاوزت ذلك إلى تقويتها بنفخ حياة جديدة فيها .

على أن الجانب الثاني من المشكلة أكثر خطراً. فإن اعتبار المجتمع والكائن العضوي وبني البشر مجرد خلايا قدد أدى إلى نتائج مريعة. فقد ألغى هيغل وماركس شخصية الفرد وأبعداها وراء المجتمع في مكان غامض ، وبذلك نفيا استقلال كيانه الفردي تماماً. وكذلك شپنگلر ، حين أقر "بسيادة الحتمية في القانون الاجتماعي ، بنشر روح التشاؤم في العالم ، بسل وقص أجنحة الطموح الانساني أيضاً. إذ حين يكون على الأمم أن تمر مراحل النمو والنضج والانحلال والموت كما يمر الأفراد ، فإن جهود الانسان مهماكان وراءها من عزيمة ، يجب أن تتفق مع تلك جهود الموسية ، وإلا حكم عليها بالاخفاق . غير أن أي تحليل القاعدة الجوهرية ، وإلا حكم عليها بالاخفاق . غير أن أي تحليل

Dr. Khalifa Abdul Hakim, Islamic Ideologg, P. 62 (1)

دقيق سيظهر لنا أنه محاولة إقناع مفلةة بالخداع تفليفا واضحاء ولا شيء غــير ذلك . فالفرد ليس مجرد خلية في كيان الجماعة ، فهو لن يزول إذا فصل من كتلة الجماعة أو أقصي عنها. إن المجتمع إذا كان له حياة تسيطر على حياة الأفراد الذين منهم يتكون فإنها مع ذلك لا تكوّن حياتهم كلها. إنه إذا كان للمجتمع كيان يريد أن يثبيته مستميناً بحياة الفرد ، فـإن للفرد كيانه الخاص الذى ريد أن يثبته مستعمناً بحياة المجتمع. لذا فالنان فكرة أن «يفعل المرء ما يشاء» فكل أمة أو طبقة أو مدنية مقضى عليها بالانحلال والزوال عاجلا أو آجلا ، إنما هي خرافة لا أساس لها النظرة لاتنصف فردية الكائن الاجتماعي تماماكا لاتنصف نظرية العقد الاجتماعي الطبيعة الاجتماعية . ومن التضليل أن نقول أن المجتمع وحده هو الذي يحيا ويتنفس في أفراده ، وإن شعورنا وإحساسنا ليسا غسير تعبير عن شعور الجماعة وإحساسها. إننا يجب أن نجيب بسسان المجتمع مهاكان لا يعيش إلا فينا ، نحن أفراده . ومن التضليل أن نقول : إن علاقتنا بالمجتمع كعلاقـة الأوراق بالشجر أو الخلايا بالجسم . بل يجب أن نقول أن المجتمع لن يبقى له معنى كبير إلا إذا كان الأفراد أنفسهم حقيقين. ومهها كان في التشابه المضوي من فائدة أدبية وايحائية فيجب أن لا تصبح في أذهاننا تفسيراً للملاقة الأساسية في الحياة الاجتاعية وهي العلاقة بين المجتمع والفرد. لأن الكائن العضوي الحي، مثل

نظرية العقد الاجتاعي الفردي المعاكسة ، ينكر أحسد طرفي العلاقة ، (١١).

وقد نتج عن اندماج الفرد في المجتمع هذا الاندماج الكلي عبادة الدولة والمجتمع والتضحية بالأفراد بوحشية وقسوة من أجل تمجيدهما . ان الفردية الروحية للإنسان وسلوكه الأخلاقي قسد أخضعا تماما للمتطلبات المادية البحتة لآلة جماعية تسمى المجتمع ليس الفرد فيها غير سن في دولاب . وهذا لعمري هو الدودة التي تنخر في صلب كيان العصر الحاضر . فمن ذا الذي يستطيع ان ينكر أن هذه الحقيقة قد جاءت بعهد من الإفلاس الخلقي والروحي وزوال الأخلاق من السياسة .

وهذا الانحطاط ظاهر في سلوك الأمة وواضح أيضاً في الحياة الخاصة والشخصية لأي رجل من أوساط الناس. إذ ما من قاعدة توجيه و أوجيه و الدولار أوجيه و الدولار الحديث تقاس بالمال لأن إله هو الدولار القدير. إن البعثات التبشيرية ترسل إلى أماكن بعيدة عن بلادهم كي يبقى العدل وتدوم الحرية في المالم ، ومع ذلك فهؤلاء الناس أنفسهم يهملون في بلادهم أسس العدالة وجذور الحرية ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المسائل الاقتصادية قسد غطت على المسائل الأخرى ، وأن الإعسان بالحياة بعد الموت قد زعزعته المقاصد والأغراض الأخرى وصارت الجنة على حد تعبير الكاتب الصيني

Maclver & Page, Society, P. 44

الشهير لينيوتونغ Linyutong « مخزنـــاً محفوظاً من السمنت المسلح مماوءاً حتى سقفه بالمعلبات » (١).

لقد صار الانسان عبداً مملوكاً لمصالحه الذاتية . وقد وصف مؤرخ حديث مشهور آثار هذه النظرات الخاطئة عن العلاقة بين الفرد والمجتمع فقال: ﴿ ليس المرء في هــذه النظرة إلا جزءاً من المجتمع وهي لا ترى أن المجتمع إنمــا هو من أجل الافراد . لذا فالأمر المهم الخطير في حياة البشر ليس تنمية الأرواح ، وإنميا تطوير الحياة المامة المجتمعات . وفي رأي الكاتب ليست هذه الفكرة صحيحة وإنها حين ُعدَّت صحيحة وطبقت برهنت على أنهـــا تنطوي على فظائع خلقية . . . ومن الناحية الدينية 'تعَـدُ \* معاملة الفرد معاملة جزء من المجتمع فقط نكرانا للعلاقة الشخصية بين الروح والخالق وعبادة للمجتمع الانساني من دون الله ۽ (٢). إلا أن نقطة مهمة يجب أن لا تغيب عن بال القارىء ، تلك هي أن مولد الحضارة وازدهارها وانحطاطها كلها ألفاظ نسبية ، إذ لا يمكن أن تكون فكرة للتقدم بلا مثل أعلى ، وكل امرى. يملم أن المثل الأعلى يختلف من إنسان إلى آخر ومن أمة إلى أمة. فالمسلم يرى أن عصر الرسول الكريم محمد سَيُنْ الله والخلفااء الراشدين الأربعة من بعده كان أوج الحضارة الاسلامية ، ولكن غير المسلمين برون أن الحضارة الاسلامية بلغت قمة بجدها حين

Between Tears & Laughters, P. 62
(۱)
م المصدر السابق ، ص عه ۱ Arnold Toynbee (۲)

ظهرت فسيسا الفنون الجميلة وضمت إلى رقعتها أقاليم أخرى واستبدلت بحياة البساطة والاستقامة والصدق والتقوى حياة طافيحة بالمسلذات والترف والقوة والعظمة الدنيوية . وأن المؤمن ليرى أن هذا العصر بالذات هو أكثر العصور دقـــة و َحرَجا بالنسبة للمسلمين والاسلام . إن (الفكرة) هي دانمًا المؤشر وهي وحدها تعين اتجاه نشاطنا وتبين مقدار قيمة ما ننجز من عمل . ويمكن تقرير ارتقاء الحضارات وسقوطها وفقاً لوجهتها . ولكن حين يختلف المثل الأعلى باختلاف الافراد ، فكيف يمكن أن نضم مقياساً واحداً نحكم به على الفترات المختلفة من حياة حضارة ممينة ؟ لقد أشار بروفيسور ( ماك آيفر Mac Iver ) في كتابه (الجتمع Society) إلى هذه الناحية اإذ ذكر أن أحد الاجتماعيين يعد تقدم الفرد اجتماعيا هو د اداء الشخصية المتكاملة لوظمفتها اداء كاملاً ﴾ ، ومن ثم ينتقل إلى تعريف التقدم الاجتماعي بأنسه يتكون من « التغيرات التي تحصل في تكوين المجتمع فتجمل اداء الانسان لوظيفته human functioning حراً من أي قيد ك وتستثيره وتسهله وتكوّن منه وحدة متكاملة » . ولكن أي حل من هذا القبيل، إنما هو حل ظاهري لا حقيقي. فالتعبيران ( اداء الوظيفة اداء كاملاً ) و (اداء الانسان وظيفته ) هما مثل أ تعبير (التقدم) نفسه ، ليسا رمزاً لمعنى معين وإنما وعائين لفظيين يضع فيهاكل من يستعملها معنى غير الذي يضعه غيره ، (١).

<sup>.</sup> ٦١٢ ص ١٦٠٠ المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

وحق هذا فإن القضية لا تنتهي ، فالاختلاف بين مختلف الاشخاص لا يقتصر على مثل الأعلى، ففكرة التقدم نفسها تختلف في أهميتها باختلاف الاشخاص والأزمان ، والفئات الاجتاعية . ففي القرن الثامن عشر كان لفظا (التنوار) و(التقدم) يعنيان الانطلاق من قيود التقاليد وطفيان السلطة . أما في أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر فكانا يبدوان وكأنها يعنيان الكشف عن الخيرات المكنونة في الأرض .

## فلسفة هيغل للتاريخ

يمكن تمريف فلسفة هيفل التي يدين لها ماركس بالشيء الكثير بأنها (مزيج المتناقضات). فهو يرى أن كل عصر أو فترة أساسية في تاريخ الحضارة الاجتماعية يمشل وحدة مستقلة. وإن ملامحه السياسية والاقتصادية والأخلاقية الاجتماعية العامة والجمالية والمعقلية والدينية كلها جوانب أو نواح المجموع الحي والجمالية والمعقلية والدينية كلها جوانب أو نواح المجموع الحي والجمالية والمعتلية والدينية كلها جوانب أو نواح المجموع الحي و وإن كل فترة أساسية تنمي فكرتها الرئيسية إلى الحد الاقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها ».

ويستمر الصراع دامًا ، فتتحد المبادىء المتناقضة في وحدة عليا هي ( المُوَحَد )، وهذا المُوحَد يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى وينشب صراع جديد فيتولد حينئذ مرة أخرى موحد يحوي ما هو فعال من كل من الفرضية ونقيضها . وبهذا الاسلوب الثلاثي تتقدم الفكرة حتى نصل آخر الأمر إلى ( المُطلَّلَ فيه أي الذي نستطيع أن نبقى نتأمله إلى الأبد دون أن نتبان فيه أي

تناقض. ويمكن توضيح ذلك بعدة أمثلة:

﴿ أعلنت الدونارف القديمة ديمقراطمة محدودة تعنى أن يعض الناس ، وهم كل طبقــة المواطنين (١) ، أحرار . وبهذا اكتشفت أثبنا مددأ الفردية والحرية المقيدتين. وإذ دفعت الديمقراطيات اليونانية مبدأ حرية الفرد إلى حد الأنانية المستقلة ، فإنها حطمت بذلك وحدة كمان دولة المدينة (City State). وقامت روما فأعلنت مسدأ عالمة الشخصية ان الفردية شخص ، كمواطن لامبراطورية عالمية . ولكن روما لم تسلم بأن الفرد من حيث كونه كائناً ذا روح حر" فقط من حيث كونه مواطناً. والمسيحية التي قامت في الامبراطورية الرومانية أعلنت، بفكرتها عن الإله البشر ، الاتحاد الشامل بين الفرد المستقل والروح العسامة . لقد حققت الشعوب الجرمانية هذا المبدأ أول مرة فيالنظام السياسي الاجتماعي . فكل الناس فيه أحرار من حيث كونهم أشخاصاً ، ولكنهم إذ يكونون أشخاصاً فمعنى ذلك أن يكونوا أعضاء في الدولة الق هي الوحدة الجامعة التي تحمي وتغذي الاسرة والمجتمع المدنى والكنيسة والحضارة . فالدولة بلا أعضائها تجريب غير غير واقمى. والفرد لا يكون إنساناً ما لم يعمل بتماون باعتباره عضواً في الدولة » (٢).

 <sup>(</sup>١) طبقة المواطنين عند الاغريق هي طبقة الأحرار من السكان .
 (١) المترجم )

Leighton, Social Philosophies in Conflict, p. 75. (Y)

وهذه الجماعية التي ظهرت في القرن التاسع عشر لا تعدو أن تكون رد فعل للفردية . وهي - حسب ما يرى هيغل - خير وأكثر انطباقاً على الحقائق ، إذ انها تتضمن العناصر الفعالة من الفردية أيضاً . وفي كل حالة تظهر من التقاء الاتجاهات المتضادة نتائج مثمرة .

وهكذا نجد أن جوهر التطور على رأي هيغل ، إغها هو نتيجه صراع المتناقضات ، على أساس أن كل ظاهرة تحتوي تناقضاً داخلياً يدفعها إلى الأمام ويؤدي بهسها آخر الأمر إلى تحطهما وتحولها إلى شيء آخر . إلا أن تحطم ظاهرة ما إغا هو الفرصة لانبثاق ظاهرة جديدة تدفع بلا شك الظاهرة السابقة ، ولكنها في الوقت نفسه تحتوي في ذاتها على كل عناصرها الفعالة. وبهذه الطريقة يتحول النظام الفلسفي إلى نظام آخر (١) .

وإن كل فيلسوف سبق هيفل اعتبر نظامه حقيقة مطلقة ، وكل ما سبقه من أنظمة مجرد أوهام خد اعة ، ولكن هيغل أظهر أن هذه النظرة تتسم بالسذاجة ، وأن كل نظام فلسفي خطوة في تطور الروح المطلقة (٢). وهده الروح في كل حقبة من حقب التاريخ تتوصل إلى إدراك ذاتها بشكل فلسفة محددة تطابق

<sup>(</sup>١) يقصد هيفل بالنظام الفلسفي Philosophic System الحقائق والأسس والقواعد التي ترتبط بفترة تطورية معينة من التاريخ . (ي. خ)

<sup>.</sup> Absolute Spirit (Y)

المحتوى التاريخي لمرحلة النطور تلك. ولكن هذا الشكل يظهر في حقبة أخرى شكلا قديماً ويخلي مكانه لخليفته الذي يزيحه دون ريب ، ولكنه يحتوي أيضاً في ذاته على مسا في الفلسفة المندحرة من نواح فعالة.

ثم إن هيغل يدّعي أن الصيرورة ليست متروكة ( للمصادفة والأسباب العارضة » بل إن وراءها ( إرادة مخطـطة ) ، وأن هدف هذا الصراع والتوفيق إنما هو تطوير ( روح العـالم ) (١٠ التي تتجه دائمـا نحو غايتها ، ألا وهي تحقيق الذات - Self. .

يقول هيغل: ﴿ إننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم أن تطوره كان دائمًا صيرورة عقلية (٢) ﴾ وأن هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم.. تلك الروح التي طبيعتها دائمًا و حدة لا تتغير ، والتي تعرض هذه الطبيعة في ظواهر و جود العالم » (٣) .

لذا و فإن تفسير التاريخ هو بيان لعواطف البشر وعبقرياتهم وقواهم الفعالة التي تؤدي دورها على مسرح العالم الكبير ، وإن

<sup>(</sup>١) هي الروح الحمركة لهذا العالم ، وهي الله أو المطلق كا يتصورها بعض الفلاسفة . ( المترجم )

<sup>(</sup>٢) يقصد بالصيرورة المقلية الحركة الفكرية نحو الأعلى. (ي. خ.)

J. Sibree, Hegel's Philosophy of History, p. 11.

الصيرورة التي تقررها المشيئة السامية المهيمنة والتي تعرضها تلك العواطف والعبقريات والقوى الفعالة ، هـذه الصيرورة تكوّن ما يسمى بصورة عامة خطة المشيئة العليا » (١).

قد يبدو لذي النظر السطحي أن الناس أحرار فيأن يعملوا ما يشاؤون كا يريدون ، وأن أعالهم تنبعث عن ما يشعرون به من حاجات وعواطف وعن ما يتمتعون به من مزايا ومواهب ، ولكن هيغل يرى أن هـذا تصوار شديد الخطأ عانى منه البشر الكثير مند زمن سحيق . فهذه الأعال جميعاً تتم بأمر ( روح العالم) ، و وهذه المجموعة الكبيرة من الرغبات والميول والنشاط تؤلف الأدوات والوسائل التي تستعين بها ( روح العالم ) لكي تبلغ غايتها ، وهي التي ترقى بها ( أي بالروح ) إلى الوعي ، قبي التي تجعلها حقيقة في عالم الوجود ، (٢) .

وكذلك فإن أهداف كل العظهاء تدخيل فيها تلك القضايا الكبار التي هي إرادة (روح العالم). ﴿ إنهم قد يسمون أبطالاً من ناحية كونهم قد استمدوا غاياتهم ودعوتهم لا من الأوضاع الاعتيادية الهيادئة التي يقرقها النظام القائم ، بل من مصدر خفي ، (٣).

<sup>(</sup>١) المصدر نفسه ، ص ١٤ .

<sup>·</sup> ۲7 ~ ~ (۲)

<sup>(</sup>۳) ه **د س** ۲۱ ه

إنهم ربحاً يعتبرون أنفسهم رجالاً أحراراً يستمدون باعث حياتهم من أنفسهم ومما يشعرون به شخصياً من أنواع الاهتام والميول، ولكن الحق أنهم جميعاً دمى في يدي (روح العالم). فهم يجهلون تماماً الفكرة العامة التي يعرضونها عندما يسعون وراء تحقيق أهدافهم تلك. والحق أن عظمتهم ليست إلا في أن لديهم البصر النافذ الذي فيسه من العمق ما يكفي لأن يدركوا متطلبات الزمن.

« وكان مما امتازوا به أنهم عرفوا هذا المبدأ الناشيء ، وهو الحنطوة الضرورية التي ستلي مباشرة في طريق التقدم التي تقدّر للمالم أرن يخطوها ، وإن جملوها هدفهم وبسذلوا طاقتهم في انجاحها ، (١١).

إن المسألة هي مسا الذي يميز هؤلاء الأبطال بمن سواهم من عامة الناس. الفرق الوحيد الذي يبينه هيغل هو صفاء النظر. فهم يسمعون نداء (روح العالم) بوضوح أكثر من بقية الناس. والنتيجة المنطقية لهدا أن هؤلاء الأبطال يجب ألا يعيروا سمعاً لنصح الجاهير لأن الجاهير لم توهب الذهن الصافي الذي يلتقط إشارات (الروح):

<sup>(</sup>١) المصدر نفسه ، ص ٢٢.

بصفاء البصيرة ويعترف بأن أعمالهم وأقوالهم خسير أعمال ذاك العصر وأقواله . لقد كوّن العظياء أغراضًا 'بر'ضون بها أنفسهم' لا الآخرين . ومهما كانت الخطط الحكيمة والنصائح التي ربمـــا يكونون قد تعلموها من الآخرين، فإنها تكون في سيرتهم العملية ملامح أضيق حدودا وأشد تنافراً ، لأنهم هم أنفسهم يفهمون الأمور أحسن بما يفهمها الآخرون ، الذين يتعلم بقية الناس منهم ويؤيدون سياستهم أو ، في الأقل ، يذعنون لهسا . إذ أن تلك الروح التي خطت هذه الخطوة الجديدة في التاريخ هي الروح التي تسكن أعماق كل فرد ، ولكن في حالة من الغفلة وعسدم الوعى ، فيوقظها هؤلاء العظهاء الذين نتحدث عنهم. لذا فإن أصحابهم يتبعون قسسادة الروح هؤلاء كالأنهم يشعرون بأن قوة أرواحهم أنفسهم ، هذه القوة التي لا تقاوم ، قد تجسدت بهذا الشكل ، (١) . لذلك فهم ممصومون من الخطأ وأعمالهم فوقكل أنواع النقد ، وكل ما يفعلونه سلوك حميد لأنهم عظياء ، وقسد أرادوا شيئًا عظيمًا ونفذوا إرادتهم وفقًا لحاجة العصر . وإن أعمالهم العظيمة هذه لها أهمية كبيرة تجعلها أسمى من أن توزن ميزان الفضيلة والأخلاق الحميدة . يقول هيغل: «بل أنه ليمكن لمثلهؤلاء الرجالأن ينظروا إلىالمصالح العظيمة الاخرى..وحق المقدسة منها بدون اكتراث . وذلك تصرف بعر"ض أصحابه إلى

<sup>(</sup>١) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

تأنيب الضمير . ولكن هذا الشكل ذا القوة الكبيرة، لا بد أن يدوس الكثير من الازهار البريئة – ويحطم الكثير من الاشياء التي تقف في طريقه ، (١) هؤلاء العظهاء وحدهم يعرفون ما هو الشر وما هو الخير وأعهالهم تحمل ختم المصير المطلق المتعالي .

يمتقد هيفل إن هذه الفكرة عن الاخلاقية تحل أحد الالفاز الكبرى في حياة البشر ، وهو أن الطيب التقي غالباً ما ، أو كثيراً ما ، يميش عيشاً ذكداً في هذا المالم ، أما الخبيث الذي يميل إلى الشر فيميش سعيداً منعماً . فهو يرى أن الانسانية إذا أخلصت نفسها لهدف واحد ووجهت جهودها إليه غير آبهة بكل ما سواه فحينئذ لا يمكن أن يعتبر ما يسمى و تعسا أو منعها من الافراد القلائل النادرين عناصر أساسية في النظام المنطقي الحكم الذي يسير عليه المالم . وكل مساهو مطلوب إنما هو أن يتحقق هذا الهدف العظيم . وإن الناس ليشعرون بعدم الرضا بجرد أنهم لا يجدون الحاضر ملائماً لتحقيق الاهداف التي يعتقدون أنها حق وعدل ، (٢) .

والأمر الثاني الذي يجب بحثه: ما هو الشكل الذي به يمكن تحقيق الهدف العظيم ؟ يخبرنا هيغل بأنه الدولة، ولكنها لا تعني عنده السلطة الملزمة التي تكون قانوناً فوق كل فرد أو جماعة

<sup>(</sup>١) المصدر نفسه ، ص ٤ ٣ .

<sup>(</sup>٢) المصدر نفسه ، ص ٠٤ .

وتكون جزءاً من المجتمع . إنها الشكل الذي تتخذه الروح إذ تتجسد تجسداً كاملاً ، وهذا هو اتحاد الذاتي مع الإرادة العقلية ، إنها الكل الاخلاقي ، الذي هو ذلك الشكل من الحقيقة الذي فيه يكون للفرد حرية يتمتع بها . . ولكن بشرط أن يعترف بالأمور المشتركة لهذا (الكل) ويعتقد بها وتتجه إرادته نحوها . إن الإرادة الذاتية والاندفاع الذاتي يحركان البشر ويدفعانهم إلى النشاط ، الذي يحقق و الوجود العملي » . إن الفكرة هي المنبع الداخلي للعمل ، والدولة هي الحياة الحلقية المتصورة التي توجد حصل لديهم بهده الطريقة فقط . إنها في الحقيقة فكرة الروح طلهرة في المظهر الخارجي للإرادة الإنسانية وحريتها. ويعرقها هيغل بأنها و فكرة إلهية » ، لأنها توجد على الأرض (۱) .

هذه بصورة مختصرة فلسفة التاريخ كاعرضها هيغل.

إن الإنسان المتوسط الذكاء يقر بأن كل شيء مدين بوجوده إلى نقيضه ، وبان بين الميول والإتجاهات المتضاربة صراعاً أبديا، وبأنه حين يحقق نظام اجتماعي ماكل ما فيه من إمكانيات يبدأ بالانحلال، وتتولد من باطنه نفسه قوى تحطمه تحطيماً وتقيم أنظمة جديدة على أنقاضه . ولكن هيغل يتوسع في ما يدعيه أكثر بما يجب. إنه يعتقد أن بين النقائض صراعاً وتوفيقاً دائمين،

<sup>(</sup>١) المصدر نفسه ، ص ١٠٠٠ .

وأن الموحد يحتوي على العناصر التي لا تزال قمّالة من كل من الفرضية ونقيضها ويقر بنا خطوة واحدة من الحقيقة (١). ونحن إذا حللنا خط المناقشات عن كثب وجدنا أن هيفل ، على شدة ذكائد ، لا يفرق بين ما هو نقيض وبين ما هو واضح متميز . يقول كروجي بهذا الشأن: « من ذا يستطيع أن يقنع نفسه بأن الدين هو انعدام الفن وإن الفن والدين ما هما إلا تجريدان ليست لهما حقيقة إلا في الفلسفة ، موحد الاثنين ، أو ان الروح العملية هي نفي للروح النظرية ، وأن المحسوس نفي للحدس وأن المجتمع المسدني نفي للاسرة وأن السلوك الخلقي نفي للحقوق ، وإن كل هسند التصورات لا يمكن التفكير فيها خارج نطاق موحدها الذي هو الروح الحرة والفكر والنزعة الأخلاقية للدولة ، بنفس الطريقة كالوجود وعدمه ،التي لا تصدق إلا بالصيرورة فقط ، (١).

إن منطقة الحدود بسين الفرضية ونقيضها فيها من التداخل والاتصال الوثيقين بينها مسا يجمل رسم خط فاصل بينها أمراً مستحيلاً . وأشد ما يكون هذا تعذراً في الحركات التي ليست لها صفة الثبات ، وإنما هي متحركة دائماً . ومهما بلغ المرء من الذكاء فلن يستطيع أن يقول جازماً : هذه هينهاية الفرضية وإن

<sup>(</sup>١) لا يقصد هيغل بذلك الحقيقة المادية بـل المطلق الذي تنحل فيه جميع المتناقضات (ي، خ).

Benedetto Croce, What is Living And What is Dead of The (Y) Philosophy of Hegel, P. 97.

الخطوة التالية تكون في عالم النقيض، إذ ليس بينهما خط حدود واضح يفصل الواحد عن الآخر ، ربما يكون فرق في الدرجة ، ولكن لا في النوع .

إننا إذا اعتقدنا بأن النقيض يتولد من باطن الفرضية نفسها أدى بنا ذلك إلى أن نعتقد بأن النقيض هو ضد الفرضية في كل ناحية . وهذا يعني أنه ليس بين النظامين شيء مشترك . وحين تكون الحالة هكذا فكيف يكون بمكنا أن تذوب الفرضية عاماً في خصيمها ؟ ان الامتزاج بينها لا يكون بمكنا إلا حين يكون بينها شبه . فيإذا فرضنا أن بينها حقا بعض العوامل يكون بينها شبه . فيإذا فرضنا أن بينها حقا بعض العوامل المشتركة لم يمكن حينئذ أن نسميها نقيضين لأن النقيضين يجب أن يكونا مختلفين في ما بينها من كل وجه . إن التوفيق بينها الفرضية ونقيضها ناتج عن الحب لا الصراع .

أما قول هيفل بأن النقيض لا ينفي إلا النواحي الناقصة من الفرضية فإنه يؤدي إلى سوء فهم آخر . إن هذه الفكرة تجمل المرء يستنتج أن الصراع بين المتناقضات منطقي تماماً وتقوم على إنجازه الحكمة الواعية التي يتمتع بها الافراد . إلا أن هيفل على المكس من ذلك يقول أن الافراد ليس لهم في الخطوط العريضة من التطور التاريخي إلا معلومات بسيطة جداً عما يقومون به فعلا ؟ إذ أن كلهم أدوات فقط وليسوا سادة هـنه الصيرورة التاريخية . فهذه الصيرورة صيرورة لا شعورية بالنسبة للأفراد .

والسؤال الذي يبرز هنا هو : إذا كانت كل حوادث العـــالم

ليست نتيجة إرادة الافراد الواعية فكيف تم القيام بها ؟ و إن هيفل لا يعطي جواباً معيناً عن هذا . بل إنه ليبدو كأنه يقول ليس الأمر المهم هو كيف تم القيام بها ، وإنما إلى أي حد تبدو هذه الصيروة اللاشعورية ، حين نلتفت إلى الوراء لننظر إليها ، منطقية بمكنة التصوار . وهو يتحدث عن كل هذا التطور كا لو لم يكن من عمل القوى العقلية لاي شخص وهو مع ذلك من عمل لا العقل عموماً ) . كأن الافكار يمكن أن تؤدي عملها دون أن تكون هذه الافكار في عقل أي شخص ، (۱). هذه الطريقة من الكلام ليست سوى اضفاء الارتباك والإبهام على الكلمات .

إن الافكار ليست بجزأة إلى أجزاء واضحة التقسيم ، بل إن كل فكرة وحدة قائمة بذاتها يستحيل أن تقسم أقساماً مختلفة ، لذا فليس من أساس لما 'يد"عى من أن نتيجة التوفيق بين الفرضية ونقيضها – وهي النتيجة التي 'تسمتى الموحد – والتي ( أي النتيجة ) هي الفرضية الجديدة ، تضم بعض العناصر وترفض الاخرى ، ونريد أن نوضح ذلك بمثال :

تمخضت الفرضية (أ) عن نقيضها (ب). إن للفكرة (أ) حسب رأي هيفل جوانب عديدة هي: (أ ١) ، (أ ٢) ، (أ ٣) (أ ٤) ، (أ ٤) ، (أ ٤) ، (أ ٥) ، ومن هذه الحسة ثلاثة أصبحت باطلة هي : ( أ ١) ، (أ ٢) ، (أ ٢) ، أما (ب) التي هي النقيض فإنها تخالف

Lindsay, Karl Marx's Capital, P. 20

ثلاثة أجزاء فقط وتحتضن القسمين الآخرين: (أ ؛) ، (أ ٥) ، وهـــــذا يعني أن (أ ١) ، (أ ٢) ، (أ ٣) التي رفضها (ب) هي العناصر المخالفة. ولو لم يكن الامر كذلك لسمح (ب) لهم أيضاً بالانضام إليه . إن (ب) لا يقبل (أ ؛) و (أ ٥) إلا علم أساس أن بينهم شيئاً مشتركاً . فيكون الحال الآن هذا :

- (ب) نقيض (أ) .
- (ب) نقیض (۱۱) ، (۲۱) ، (۱۳) لانه ینافیهم .
  - (ب) نقيض (أع) و (أه) لانه يتفق معها.

وهكذا يتبين لنا أن الفكرة (أ) نفسها خليط من فكرتين متصارعتين كل منهما مجزأة إلى أقسام مختلفة . فهل يمكن تصور ربط هذه الاقسام المتخاصمة في فكرة واحدة ؟ أن هذا التصور لا يقدر عليه إلا رجل من عيار هيفل .

ثم هنالك ناحية أخرى من عدم الاستقامة في حجج هيفل . فهو يعتقد أن كل عهد يأتي يكون أرقى من المصر الذي سبقه ولان الفرضية ونقيضها و موحد هما ما هي إلا أشكال التطور أو مراحله. إن الموحد الذي هو نتيجة التوفيق بين العناصر الصحيحة الفحالة من الفرضية ونقيضها يجب بالضرورة أن تخطو خطى واسعة إلى الامام . وكذلك يعتقد هيغل أن كل عهد يمثل وحدة لانه مظهر لشيء واحد فقط ، ألا وهو ( روح العالم ) . ويتضح من ذلك أن الحضارة التي هي الكل المركب ويتضح من ذلك أن الحضارة التي هي الكل المركب

والقوانين والعادات يجب أن تليها حضارة أحسن منها . وللروان يتخذ أي مقياس للتحسن ، ولكن التقيم أمر حتمي ومستمر ، وإن مستوى الاوجه المختلفة للحضارة في رقي لا سبيل إلى مقاومته . وكذلك فإن (روح العالم) التي تتجه دائما نحو الكمال يجبعليها أيضا أن تقوم بالتوسع والامتداد داخل الرداء الذي ارتدته . لذا فإنه مع تكشف الحجاب عن (روح العالم) يجب أن يحصل أيضا تحسن في أساليب حياة البشر وطرق تفكيرهم وفنهم وأدبهم ودينهم وحتى وسائل ترفيههم وتسليتهم . ولكن في سجلات التاريخ تحديا جريئا لهانه الحقيقة التي هي النتيجة الطبيعية التي تؤدي إليها طريقة هيغل الديالكتيكية (١١) فليس في الوجود نمو متناسق يتبع نظاماً اعتبادياً لا شنوذ فيه ويكن نقله من شعب إلى شعب في هاذا العالم . وإن تطورها ويكن نقله من شعب إلى شعب في هاذا العالم . وإن تطورها وليس على خط واحد أو تراكمياً ، وإنا هو يحدث أحياناً . . في

<sup>(</sup>۱) نقصد بالديالكتيك المنطق الذي استخدمه هيفل في ما يتعلق بما وراء الطبيعة ، ولتفسير الصيرورة المهيمنة على الكون ككل ، وكذلك الصيرورة المتجسدة في الأنظمة الإجتاعية . أما قاعدة الديالكتيك تبما لرأي هيفل فهي إن لكل فرضية نقيضا ، ومن اتحاد الفرضية والنقيض في موحلة من مراحل الصيرورة يتكون عندنا الموحد الذي سرعان ما ينقلب إلى فرضية تثير نقيضا ، وهكذا . و ( ديالكتيك ) من الناحية اللفوية تمني الجدل وفن المخاطبة . ولكن هيغل أعطاها مفهوماً فلسفياً جديداً ، لذا فالافضل الإبقاء على لفظ هذه الكلمة كما استخدمها هيغل وذلك لنميزها من المعنى المألوف لكلمة (ديالكتيك ) الذي هو الجدل أو فن المخاطبة (ي، خ) .

سلسلة من الارتفاعات تشبه البئقات التي ليس لهـا إلا القليل من الاستمرارية ، إلا في حسدود تأثرها بالطرق الأسلوبية في التعبير طبعاً » (١٢).

لقد دحض بعض الناس هذه الحجة بقولهم : إنه قد حصل حقاً إتساع مستمر في وسائل الراحة المادية بدأ منذ وقت لا تعرف حدوده > لذا فإن له يغل الحق في ما ادعاه. ولكنهم مع الأسف خلطوا بين الحضارة والمدنية > فلم يدركوا أن و الحضارة لا تمثل أحدث الأساليب المتبعة في الحياة العامية > لا سيا في الأمور الظاهرية من الحياة — في اللباس > والتقاليد المتبعة في غرفة الاستقبال > وفي وسائل الترفيه المادية > وفي ما أشبه ذلك من علامات الطلاء الزائم أو الخارجي . إن هيذا الوضع أو الحالة قد تكون مظهراً كاذباً مفتملاً > وليس لزاماً أن يكون ذلك مثلا لحالة عقلية راقية > (٢) . إن الحضارة تتعلق بحيالة العقل . هذلك فليس لها صفة التراكم وتكديس الأشياء كالمدنية . بل إن على كل جيل أن يكتسبها من جديد . إن الموضوع ليس بحر" وراثة . وليس من شيء يناقض كون و حصيلة الماضي هي أساس منافية في الحاضر > ولكن ما من شيء يضمن أن يكون خيراً منه > .

Ginsberg, Sociology, P. 46

Dr. Sayyed Abdul Latif, Islamic Culture Studies, PP. 4-5 (Y)

هذه الحقيقة ما من شيء يناقضها حتى في أمر الحضارة. ولا يوجد امرؤ له ذرة من عقل يستطيع أن ينكر أن الرجل الحديث حتى بعد مرور ألف من السنين على حصوله على الانتصار الرائع على الزمان والمكان لا يزال في قبضة الأنانية وضيق أفق العقل. لقد عرض بروفيسور آرنولد توينبي المؤرخ الشهير المعاصر هذا الصراع في كلمات قوية جداً ، فقال : « لقد ارتقى علمنا فبلغ درجة منالشمور الإنساني لم يسبق له أن بلغها . فقد أقرت الحقوق الإنسانية للبشر جميعكا مههاكانت الطبقات والأمم والعناصر التي ينتسبون إليها ، ومع ذلك فقد انتكسنا في الوقت نفسه في الحروب الطبقية ، والقومية ، والعنصرية إلى أعماق قد لا يكون سمع بهسا أحد قبلنا . وهذه المشاعر السيئة تجد لها متنفساً في أعهاق القسوة الغليظة المصممة علماً ، وإنك السلوك المختلفين يعيشان متجاورين في العالم نفسه، بل في البلاد نفسها في بعض الآحيان وفي النفس الواحدة . ثم أن لدينا قوة في الإنتاج لم نصل إليها من قبل ، وهي توجد إلى جانب نقص وعدم كفاية لم 'نعان منها من قبل .

لقد اخترعنا الآلات لكي تعمل عنه ولكن العمال الفائضين الذين نريد استخدامهم في أعمال الخدمة الإنسانية – بل للخدمات الأساسية الأولية كمساعدة الأمهات في رعاية أطفالهن – أصبح عددهم أقل مماكان . إن ما لدينا هو أن البطالة المنتشرة يحل

محلها دائمًا وبصورة ثابتة نقص هائسل في اليد العاملة ، ولا شك في أن التضارب بين أفقنا التاريخي المتوسع ونظرتنا التاريخية المتقلصة هو من ميزات عصرنا هذا . ومع ذلك فإذا نظرنا إلى ذلك من حيث ذاته ، فما أعجب التناقض الذي سنجده فيه ، (۱)!

إذا اعتقدنا أن الموحد الحضاري لعصرنا هذا ناتج ثانوي الدم السلم النقي لكل الحضارات السابقة التي عرفها الإنسان حتى الآن فلا ريب في أنه يجب أن يكون أحسنها وأكملها من كل الوجوه. لكننا نجد الحقيقة مخالفة لذلك تماماً. فعصرنا عصر قد ترابط فيه الانحطاط الخلقي عند الناس مع ازدياد التقدم المادي. فكيف يستطيع هيغل وأتباعه أن يوفتقوا بين هذين الإثنين ؟

وتخالف ذلك مغالطة أخرى، فإن هيغل يعتقد أن صيرورة الزمن تتجه من الأدني إلى الأكثر كالأ.. بالمعنيين الحلقي والمنطقي. إن ( روح العالم ) تتجه نحو تحقيق الكمال ، ولكنها لم تبلغ بَعد هدفها . وربما لن يمكن لها ذلك ما دام هذا الوجود . فحق في يومنا هذا تتحطم الفرضية بسبب التناقض الداخلي الذي فيها ، وتفسح المجال لظهور النقيض ( عكس الفرضية ) ، الذي يحاول أن يزيل هذا التناقض . وهذا أيضاً يتحطم لسبب ما ، وينشأ موحد يضم العناصر الفعالة من كل من الفرضية ونقيضها. وهذه الصيرورة سائرة في طريقها تعمل عملها في أمريكا وانكلارا

<sup>(</sup>۱) Arnold Toynbee ) المصدر السابق ، ص ۱ ه ۱ - ۲ ه ۱

وروسيا بل في ألمانيا أيضاً إذ لا يمكن أن توجد فكرة الانتهاء في نظام هيفل الفلسفي . إن هذا لهو أساس ما جاء به هذا الفيلسوف الكبير . ولكن هيفل نفسه تصور ، على صعوبة توفيق هذه النظرة مع نظريته ذاتها ، أن دولة بروسيا كانت قد بلغت الكال حقا بحيث لم تكن أية ثورة تالية تستطيع أن تأتي بغير المصائب في أعقابها . ولقد يمكن القول أن الحقيقة قد تم الوصول إليها آخر الأمر هناك في ألمانيا في أية فسترة ، وأن الخط المتموج قد بلغ قمته .

إننا لنجد عند هيفل محاولة لإعادة الثقة في المقل ، تلك الثقة التي كان (كانت Kant) قد زعزعها ، وهدا هو سبب إدعائه بأن المقل وحده يوجه العالم. وهو يمتقد أن العقل فكر " يكيّف نفسه بحرية تامة . وهو يكره من أعماق قلبه كل ما هو مخالف للمقل والمنطق ويقول : إن الصيرورة الكونية كلها تسير وفق مبدأ عقلي . وهسذا هو الذي جعل هيغل يقول قولته المشهورة : « إن كل ما كان معقولاً فهو حقيقي ، وكل ما كان حقيقياً فهو معقول » . وكان يعني بهسذا إن الأنظمة الإجتاعية الموجودة وأشكال الحكم التي لا يقررها سوى تطور (الروح الطلقة ) هي أيضاً خطوات في حركة العقل ، وهنا يضع هيغل مبدأه الديالكتيكي المثالي الذا فإن تطور المقل هو تطور الحقيقة . مبدأه الديالكتيكي المثالي الذا فإن تطور المقل هو تطور الحقيقة . وهكذا فكل شيء ، سواء كان خيراً أو شراً ، له ما يسو غه ، وهنا منطقي معقول . يقول (بدنيديتو عكروجي ) في ممرض

تعليقه على هذه الناحية من فلسفته: وإن فكرة هيغل عن الحياة كانت فلسفية بحيث أن النزعتين المحافظة والثورية وكل في دورها وتجد فيها ما يسو غها. وفي هذه النقطة يتفق إنجاز الإشتراكي والمؤرخ المحافظ ترايتسشه Treitzsche لأن كليها يرى أن قائل الممقول والحقيقي يكن أن يدعى إليه بصورة متساوية في كل الآراء السياسية والأحزاب التي يختلف بمضها عن بمض لا من ناحية هذه الصيغة المشتركة وبل في تعيين ما هو الممقول والحقيقي وما هو غير الممقول وغير الحقيقي. وفي كل مناسبة يعيد ذلك الحزب السياسي العدة لمن حرب على نظام أو طبقة من طبقات المجتمع فإنه يدعي أن خصمه مخالف للمعقول أي أنه ليس له وجود ملموس وحقيقي ويكون بهذا الإدعاء قد وضع نفسه مع الفلسفة في خط واحد و (١).

وواضح أن هذه النظرة فضلاً عن أنها تسندكل فجور واضطهاد فهي كذلك تساند أي نوع من أنواع الهيجان . وإذا سلمنا بأن المعقول حقيقي ، فحينئذ إذا تبين أن الحقيقي غير معقول وغدا لا يتجاوب مع أفكاره ، فذلك برهان نهائي على أنه صار عتيقا ، ومحكوما عليه بالفناء و عرضة لأن يتحطم . فكانت الملكية موجودة طوال الفترة التي كانت فيها معقولة ، ولكنها في الوقت الذي أصبحت فيه غير معقولة زالت . لذا

Benedetto Croce (۱) المصدر السابق ، ص ۲٦ – ۲۷

استطاع اليساريون من أتباع هيفل أن يفسروا هـذا الفرض لكي يساندهم في صراعهم مع النظام الملكي والدين. وكانوا يستطيعون أن يظهروا أن المسيحية والدين مخالفان للمعقول ، لذا فيجب أن يزولا ، ولذلك فإن قتالها أمر لا مفر منه . ولكن المسألة هي: كيف يمكن أن يقرر أن نظاماً ما من أنظمة الحكم معقول أو مخالف للمعقول ؟ والجواب على ذلك هو أن النصر الحربي وحده يقرر ذلك. وهذا ما حدا بالنقاد إلى أن يسموا هيغل « فيلسوف يقرر ذلك. وهذا ما حدا بالنقاد إلى أن يسموا هيغل « فيلسوف مجلس الحكم السري وحكم طبقة الإداريين للدولة » . وفي هـذا القول شيء كثير من الحقيقة .

ففي هذا النظام الذي يمتزج فيه غير المحدود والمحدود في شيء واحد، والخير والشر يؤلفان صيرورة واحدة والتاريخ فيه هو عسين حقيقة الفكرة والروح ، لا شيئا خارجا عن إطار تطورها التاريخي، في هذا النظام تكون كل حقيقة ، لجرد كونها حقيقة ، حقيقة للفكرة وتابعة للكل المحسوس الذي لا يتجزأ . لذا فكل التاريخ عنده يصير تاريخا مقد سا ، (١) .

هذا المبدأ كما يقول المدعون بحق و قد صار قاعدة وللمذهب العقلي الحديث و التي تقول : ﴿ إِن العاطفة هي الباعث وحب السلطان هو الدليل الموجة و والقوة هي الأداة و وتعتقد هذه المدرسة أن الحير والسعادة لا يمكن بلوغها بالتنمية الروحية ولا

<sup>(</sup>١) المصدر نقسه ، ص ٢٩.

المادية . وإغيا و فقط بالتصميم على الحصول على القوة ، . في الكفاح وفي الإنتصار . وإن أي إنسان له شيء يسير من الذكاء ليستطيع أن يتصور مبلغ عظم الفاجعة التي أحدثتها هذه الفلسفة في العالم . فقد ضيقت دائرة التعاطف الإنساني وجعلت قلوب الناس قاسية وذهبت بما كان لبني البشر من إرهاف في الشعور . وأمسى البشر جماعة من الوحوش لا مم له أم لها في الحياة إلا تدبير أمور السلطان بأية وسيلة – مشروعة أو غير مشروعة .

إن الصيرورة الديالكتيكية التي جاء بها هيفل قد علمت الناس عبادة القوة . وقد ساند هو نفسه كل رجل ارتقى عرش السلطان . « حسين حاول نابليون بحراب جيشه أن يدخل العلاقات البرجوازية إلى ألمانيا ، كان هيفل ، الذي كان في ذلك الوقت يضع أسلوبه الديالكتيكي ، يتجاوب مع الثورة الفرنسية ورحب بدخول جيش نابليون إلى (ينا Jena) باعتباره التجسيد التاريخي لشكل جديد للروح المطلقة . ثم سمى نابليون « الروح المطلقة على جواد أشهب». ولكن بعد عشرين سنة من ذلك حين المطلقة على جواد أشهب». ولكن بعد عشرين سنة من ذلك حين قوي الحكم الملكي الإقطاعي في ألمانيا ، الذي كان على رأسه فريدريك وليم الثالث ، كان هيغل قد فقد أفكاره الثورية وأصبح فيلسوف الدولة في مملكة بروسما » (١) .

A Textbook of Marxist Philosophy, Translated by A. C. (1) Mosley, P. 59

ونريد أن ننظر آخر الأمر في نظريته عن الدولة . نحن نعلم أن هيغل يعتقد بأن الانفصال شيء لا وجود له في عالم الحقيقة . فالمالم ، كا يتصوره ، « ليس مجموعة وحدات صلبة ، ذرات أو أرواحًا ، كل منها قائمــة بذاتها تمامًا . وعنده إن ما يظهر من استقلال ذاتي للأشياء المحدودة ، إنما هو وهم وخيال . وهو يرى أنه مسا من شيء حقيقي تماماً وبصورة نهائية إلا (الكيل). وهذه العقيدة أدّت به إلى أن يستنتج أنه لما كانت الدولة تجسيدا للكل فهى الحقيقة الصادقة وفيها وحدها توجد الفكرة الإلهية. وأن الفرد إذا أراد أن يحقق وجوده لم يستطع ذلك إلا حــــين يكون عضواً من أعضاء الدولة . ولكن في هــذه الفكرة شيء" كثير من التناقض. فالمشكلة هي لماذا يجب علينا أن ناخذ الدولة وحدها تجسيداً للكل ولماذا لا نعد المالم كله وحدة كاملة والدول بمثابة أقسامه ؟ إن ذلك أقرب إلى الحقيقة وأكثر إتفاقاً مع فلسفة هيفل ، لأن ( روح العالم ) تعرض نفسها في كل أرجاء الأرض وما فيها من سكان . إنها لا تحصر نفسها في حدود بلاد أو دولة ، والعالم كله مسرح لها ، فيه البشر جميعًا بمثلون يؤدون أدوارهم وفقاً لرغبتها. إن هذا التعظيم المفرط للدولة والذي ليس له داع ناتج عن رد فعل شعر بــه العالم بعد ( حركة الإصلاح Reformation ). ولقد أدت فكرة الدولة هذه إلى نتائج خطيرة ، فقد ألقى في أذهان الناس أن يوالوا ويناصروا الدولة بلا قيد ولا شرط سواء كانت هذه الدولة تمثل العدل أو الظلم. وفضلاً عن ذلك فهسنده الفكرة عن الدولة ولتدت أشد الإتجاهات الفاشية فظاعة في العالم. وقد ظهر من يدعي بكبرياء أن أكثر الدول مدنية أشدها عدواناً. ولم يكونوا يعتقدون أن الرجال يليق بهم شيء غير التدريب على الحرب ، وأما النساء فللترفيه عن المقاتلين ، وأما ما سوى ذلك فسخف ، (۱).

هذا المذهب الحربي الذي كان وما يزال أحب المذاهب إلى كثير من بلدان العالم، نتج عن نظرية هيفل عن الدولة. فالدولة تمتبر قانوناً بذاتها. وإنه يرى فيها العقل المطلق الواثق من نفسه الذي لا يعترف بأية سلطة سوى سلطته ، والذي لا يقر بأية قواء عد مجردة للخير والشر والعيب والحسة والاحتيال والحديمة ، (٢). لذا فاللجوء إلى كل أنواع الوسائل ، مها كانت منافية للأخلاق ، يعد أمراً مشروعاً إذا كان من أجل الدولة . إن الفاشية هي الطفل السياسي الذي أنجبته ديالكتيكية هيفل. يقول دوغلاس اينسلي: وإن أعتبار هيغل للحقيقي والعقلي شيئاً واحداً قد أدى به إلى أن يساند باندفاع عمل الدولة وكل العظهاء » (٣) . إن موسوليني ليتحذث عها في قلب هيغل حين العظهاء » (٣) . إن موسوليني ليتحذث عها في قلب هيغل حين

<sup>.</sup> Neitzche ( )

Die Absolute Regierung in System der Sittlichkeit (Y)

Benedetto Croce (٣) ، المصدر السابق ، ص ه ١ من المقدمة وص ٣٧ من الكتاب .

يقول: ﴿ إِنْ الدُولَةِ هِي المُطلق حَـَىنَ تَقَارِنَ بِكُلُ الْأَفْرَادُ أُو الجماعات. إِنْ تُوسِعُ الْأُمَةُ عَرْضَ جُوهِرِي للحَيْوِيَةِ ﴾ ونقيضه هو علامة للتردي والانحطاط » .

إن الأبطال المسؤولين عن توسع الدولة معصومون. وكل ما يقومون به صحيح. لذا لا يجوز لأحسد أن ينتقدهم. وهؤلاء الأبطال يجب أن يقوموا وحدهم بإملاء إرادتهم لأنهم يستطيعون أن يتصوروا حقيقة عصرهم تصوراً صحيحاً. هذه النظرية عن الدولة قسد حثت الناس على اتباع أوامر الحكام اتباعاً أعمى وزعزعت كيان الأخلاق من أساسه.

ولن يكون خارجاً عن الصدد إذا ذكرنا أن هيفل قسد غض النظر عن بعض من أهم حقائق التاريخ و ذلك من أجل أن يبرهن على صحة نظريته الديالكتيكية . فتاريخ العالم الذي وضعه هيفل ذو شكل ثلاثي كا تصوره . . وهو العالم الشرقي والعالم الإغريقي الروماني والعالم الجرماني . وهدفه عنده هي الفرضية والنقيض اللذان يصبحان واقعاً محسوساً لما هو أحسن أو أسوأ في الصيغة ، إن الشرق عرف ويعرف أن شخصاً واحدا فقط حر ، والعالم الإغريقي الروماني أن بعض الناس أحرار ، والعسالم الجرماني أن "كل الناس أحرار . لذا فشخصية الأول استبدادية ، والثاني ديمقراطية وارستقراطية ، والثالث ملكية » وهذا الاستنتاج قد أراد الوصول إليه لفرض مساندة الحكم الملكي وهذا الاستنتاج قد أراد الوصول إليه لفرض مساندة الحكم الملكي في ألمانيا. ولأجل أن يثبت هذا الثلاثي فإنه بمحض هواه غطتي

حقائق كثيرة عن المكان والزمان. دفني المكان يحذف تماماً القسم الخامس من العالم ، وهو استراليا ، وجزراً أخرى بــــين T سما وأمريكا تبدو عنده متأثرة « بالتخلف المادي » وأمريكا ليست عنده إلا ذيلا للمدنية الأوروبية وهو يرفض أن يراعي في حكه ، ما كان للمكسيك وبيرو من مدنية قديمة ، لأنها ، بما نعرف عنها كانت طيمية تمامسا ومحتما عليها أن تموت عند اقتراب الروح. أما عن الزمان فهو يدّعي أن التاريخ لا يبدأ إلا حسين يوجد المؤرخون ، ومن هنا كانت الكلة الألمانية Geschichte (أو الكلمة الإيطالية Storia) تمني أن للتاريخ a parte قاتمة a parte subjecti ورجهة موضوعية object . ربما يكون الناس قد قضوا من الحياة زمناً طويلا من غير أن يكون لهم دولة ، ولكن هذا ، الذي هو حياة ما قبل الحدود في الزمان والمكان ، حكتب هيفل في أحد دفاتره في آخر سنة من حياته: ﴿ إِن التقسيم الذي قستم به الإغريقيون تاريخ المالم لا يزال هو نفسه نافذاً ، (١١).

<sup>(</sup>١) المصدر نفسه ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

## الفكرة المادية عن الناريخ

كل من درسوا كتابات كارل ماركس دراسة شاملة مجمعون على أنه قــد أولى اهتاماً كبيراً لتفسيره للتاريخ ، الذي أصبح أساساً للماركسية ، وأن هذا التفسير قــد أثر على نظرة الناس المامة ، رجالاً ونساء ، وعلى مشاعرهم وعقائدهم فضلاً عن تأثيره على الفكر السياسي للعصر ،

إن مختلف المصادر تكشف لنا أن ماركس لم يكن منشىء النفسير الديالكتيكي للتاريخ و إنما أخذ ماديته من آخرين كثيرين سلكوا السبيل نفسه وصب فلسفته في القالب الذي اقترحه ديالكتيك هيغل (١١). ولكنه وجد أن هيغل واقف على رأسه ،

<sup>(</sup>١) إن المادية التاريخية البسيطة يمكن أن ترى كاملة النمو في بحث أعده ( هولباخ Holbach ) وطبع قبل قرن ، وهي أيضاً مدينة بالكثير إلى ( سبينوزا Spinoza ) . وقد أعاد ( فويرباخ Feuerbach ) تقرير شكل مجدد منها في أيام ماركس نفسه . ويمكن أن ترى النظرة إلى التاريخ الإفساني على أنه دراسة للحرب بين طبقات المجتمع عند (سان سيمون Saint Simon ).=

لذا فقد عد ل وقفته فأقامه على رجليه . فقد أصر هيمل على أن كل ما يحصل من تغير في العالم المادي الحقيقي ، إنما هو مجرد إنعكاس لا إرادي لتقدم وتطور (روح العالم) ، أما ماركس

= وقد اعتنقها إلى حد بعيد مؤرخون فرنسيون متحررون من معاصريه مثل (تيري Thierry) و (مكنيه Mignet) وكذلك المؤرخ المحافظ؟ كيزو Guizot ). أما النظرية العلمية لحتمية حدوث الأزمات الإقتصادية حدوثاً متتظماً ، فربما كان أول من وضعها ( سيسموندي Sismondi ) . وأما النظرية العلمية لظهور الطبقة الرابعة fourth estate فقد التخذها درن ريب أرائل الشيوعيين، ودعا إليها في ألمانيا في أيام ماركس كل من ( فور: لله شتاين Von Stein ) و ( هيس Hess ) . وأما التسلط المطلق للطبقة العاملة ( دكتاتورية البروليتاريا ) فقد عقود القرن الثامن عشىر ، ورضع هذه الفكرة بشكل واضح في القرن التاسع عشر وبإشكال مختلفة كل من ( فايتلنغ Weilling ) و ( بسلانسكي Blanqui ) . وقد زاد في إيضاح المركز الحاضر والمستقبل للعمال وأهميتهم فيالدولة الصناعية ( لوي بلون يشكل أكبو الدرلة الفرنسيون يشكل أكثر تكاملًا عما يوافق ماركس عل إقراره . إن نظرية القيمة المبنية على العمل تستمد من (لوك Locke ) و ( آدم سمث Adam Smith ) و الإقتصاديين القدامي الحافظين ( الكلاسيكيين ) ونظريــة الاستغلال وقيمة الفائض ( Theory of exploitation and surplus value ) رممالجتها بسيطرة الدولة سيطرة مباشرة يمكن أن ترى في كل من ( فورييه Fourier ) وفي كتابات الاشتراكيين الأوائل مثل ( بری Bray ) و ( تومیسن Thompson ) و ( هرلجسکن Holdgskin ).

(نقلا عن كتاب: ( - Berlin pp. 14 – 15) كارل ماركس ربيئات حياتــه ، لايسايه برلين ص 15 – 14 – 14) .

فقد أكد حقيقة العالم الخارجي وبين أن المثل العليا والأفكار عند بني الإنسان ، إنما هي نفسها نتاج البيئة الإقتصادية المادية وما يحصل فيها من تغير، لذا فليس لها وجود مستقل خاص بها. وإن صراع المتناقضات لا يحصل في عالم الأفكار كا أدعى هيغل وإنما في عالم أحوال الناس الواقعي بواسطة ما يحصل في الكيان الإقتصادي للمجتمع من تغير.

وقد رأى ماركس كثيراً من الأخطاء في نظام هيفل ، كا بين ماركس نفسه في فقرة مشهورة من مقدمته للجزء الأول من كتاب ( رأس المال ) إذ قال : « إن أسلوبي الديالكتيكي ليس بجرد أسلوب مخالف لأسلوب هيغل و إنما هو عكسه تماماً ، لأن عملية التفكير عند هيغل هي خالقة العالم الحقيقي ، والعالم الحقيقي ليس إلا الشكل الخارجي الذي تتخذه الفكرة ، أما أنا فأرى أن الفكرة ما هي إلا العالم المادي بعد أن يعكسه ذهن فأرى أن الفكرة في شكل افكار ، (١) .

وهو يبدأ في كتابه هذا بأن يسأل هذا السؤال: ما هو المبدأ الذي يحكم كل العلاقات بين البشر ؟ ويجيب على ذلك بأنه الهدف المشترك الذي يسمى كل الناس لبلوغه ، وهو إنتاج الوسائل التي

<sup>(</sup>١) يقول في رسالة إلى ( حكوكليان Kuqelmann ) عام ١٨٦٨ : « إن ديالكتيكية هيفل هي الشكل الأساسي للديالكتيكيات، ولكن تجريدها من شكلها المبهم Mystical Form هو بالضبط الشيء الذي يميز أساوبي .

يديون بها حياتهم ، وبعد الإنتاج تبادل الأشياء التي أنتجوها , فإن على الإنسان أن يعيش ثم يستطيع أن يبدأ بالتفكير . لذا فإن الأمر النهائي الذي يقرر التغير الإجتاعي يمكن أن يوجد لا في أفكاره عن الحقيقة الأبدية والعدالة الإجتاعية ، وإنما في ما يحصل من تغير في أسلوب الإنتاج والتبادل . وإذا تركنا جانبا ما لا ضرورة له من تفصيلات الفكرة الماركسية عن التاريخ ولم ننظر إلا إلى الجوانب المهمة في هـناه المشكلة وجدنا الفروض الرئيسة التالية :

را بدخل الناس في غمرة الإنتاج الإقتصادي الإجتاعي في بعض العلاقـات ويضطرون دون إرادتهم إلى أن يكو نوا بعض الظروف. وإن ظروف الإنتاج هذه تتفق مع مرحلة معينة من تطور القوى المادية.

إن ظروف الإنتاج إذا أخذت ككل، تكون الكيان الإقتصادي للمجتمع. وهذه هي القاعدة المادية التي يقام عليها بنيان القواذين والأنظمة السياسية والتي إليها يرجع بعض أشكال الوعي السياسي.

٣ ــ ليس وعي الإنسان هو الذي يعين أشكال الوجود، بل أشكال الحياة الإقتصادية والإجتماعية هي التي تعين الوعي .

ع ـ بعــد أن تبلغ قوى الإنتاج المادية مرحلة معينة من التطور تصطدم مع ظروف الإنتاج الموجودة ، أي مــع نظام

الإنتاج الذي تعمل في ظله .

٥ - إن تاريخ المجتمع منذ وجد حيى الآن هو تاريخ صراع طبقات: حر وعبد ، نبيل وعامي ، سيد وخيادم ، رب عمل وصانع ، وبكلمة واحيدة ظالم ومظلوم . . كلهم وقفوا موقف المعارضة الدائمة بعضهم لبعض ، وقاموا بحرب لا انقطاع لحيا ، تختفي عن الأنظار حيناً وتظهر حيناً آخر: حرب كانت تنتهي إما بإعادة بناء المجتمع كلياً بشكل ثوري ، أو بتدمير الطبقات المتصارعة جميعاً .

هذه إذن هي الفكرة الماركسية عن التاريخ التي ادعى إنجاز؟ يجانب قبر ماركس ، أنها أمدت علم الملاقات الإجتاعية بالشيء الكثير. و مثلما اكتشف دارون قانون التطور في الطبيعة العضوية اكتشف ماركس قانون التطور في تاريخ البشر. لقد اكتشف الحقيقة البسيطة التي ظلت حتى الآن مفطاة بما نبت فوقها من العقائد . . وهذه الحقيقة هي أن الإنسان يجب أولا أن يأكل ويشرب ويتخذ مسكنا ولباسا قبل أن يستطيع أن يبحث عن سياسة أو دين أو علم أو فن وما سواها . لذا فإن إنتاج وسائل المعيشة المادية ، وما يتبع ذلك من درجة التطور الإقتصادي التي يحصل عليها بعض الناس أو تكون في حقبة ما ، كلاهما يكونان الأساس الذي تنمو عليه الدولة والأنظمة والأفكار القانونية والفن وحتى الأفكار القانونية على هذه الأشياء على هداه لا أن يفسر هو على هدى هذه الأشياء كا

كأن يحصل حتى الآن ، (١).

إنه لمن سوء حظ البشر أن ظهر ماركس في أفق العالم في عصر كان ينظر فيه إلى الثروة المادية وامتلاكها على أنها الهدف الوحيد في الحياة. فقد كانت المسيحية تكاد تكون قد استنفدت ما فيها من قوة . وكانت القوة الهائلة والسيطرة على الموارد المادية التي وضعها التقدم العلمي تحت تصرف الإنسان قد جعلتاه يفكر أنه ليس وراء المادة شيء . وكان ينظر حتى إلى غرائز الإنسان ومشاعره وعواطفه وضميره على أنها منتجات ثانوية لها. ولم يكن من اختلاف جوهري بسين الإنسان والحيوان غير أن الإنسان من اختلاف جوهري بسين الإنسان والحيوان غير أن الإنسان ليستطيع أن يتكلم والحيوان لا يستطيع . والأول قد نتج عن الثاني بعملية التطور . وحياة الإنسان خاضعة تماماً لقوانين العالم المادي التي لا سبيل إلى تغييرها .

هذا التغير في النظرة بعيد المدى من حيث نتائجه . فوجه الذم بصراحة إلى كل الفلسفات التي كانت تتحدث عن الإنسان على أنه صاحب (إرادة حرة) و'نظير إليها نظرة إحتقار باعتبارها من مخلفات الماضي لا غير . وأصبحت أساليب التفكير ذات القوانين الدقيقة التي تشبه قوانين العلوم الطبيعية التي تحكم الظواهر الطبيعية مقبولة لدى الناس ، وأبعيد ت أفكار الأخلاق والضمير إلى حيث لا سبيل إلى رؤيتها. ولم يكن من الظواهر ما

Karl Marx, Selected Works. Vel. I. P. 19 (1)

يستحق الاهتمام إلا ما كان ظاهراً للحواس.

هذه هي أسس الفكرة المادية عن التاريخ. وقيد أغرى ماركس بها ماكان للعلوم الطبيعية من بريق خارجي . ولماكان هو نفسه يتصور أن الإنسان مجرد آلة ، فقــد حاول أن يصوغ القوانين الإجتماعية على غرار طبيعة القوانين الطبيعية . ولا شك ذهنه هدف واحد فوق كل شيء وهو أن يبرهن بطريقة مساعلى أن أسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الطابع العام لطرق الحساة الإجتاعية والسياسية والروحية . إن (إنسانه) مجرد تماماً من حرية الإرادة.والباعث الوحيد لأعماله هو الحصول على وسائسل الراحة المادية. وإن الطريق لتحقيقها هو القاعدة الحقيقية التي عليها يرتفع صرح حياته الفردية والجماعية . وحين تتغير هذه القاعدة يحصل تغير كامسل في البناء المقام عليها. لذا فإن وسائل الإنتاج هي الحكم الفصل الحقيقي الذي يقرر مصير البشر. والنتيجة الطبيعية لهذا إننا سنكون ملزمين بأن نقر بأن ( الجماعـة ) وحدها هي الحقيقة وأن الوجود المستقبل للأفراد 'بجر"د'وهم . إن كرامة الإنسان خداع محض، وكل من يفخر بأن يدعو نفسه حرآ وإنسانا ذا تفكير قويم إنمسا يرزح تحت وطأة أفكار خاطئة أشد الخطأ ، فما هم إلا « حشد من مخلوقات آلية لا إرادة لها ».

حتى الأنصاف ومشحونة بعيوب خطيرة .

( إن الرابط بين التغير الاجتاعي وعملية النطور الإقتصادي أقلب كثير تأثيراً وبساطة و كفاية بما يقرره علم النفس الماركسي. إن علم النفس الذي يفتقر إلى الكفاءة ربما هو الضعف القتال للحتمية كلها . فقد زعم ماركس أن الإنسان يستجيب للتغيرات التي 'تدخل' في نظام الإنتاج ... أما كيف تدخل فهو لا يقول لذا لأنه يتكلم كما لو كان الأسلوب الفني المتغير في الإنتاج هو نفسه يشرح نفسه وهو السبب الأول في صيرورة هي ، ببساطة ، مسرورة محتومة . إنه يتجاهل تعقيدات التعود من جهة والنفور من جهة أخرى . إنه يبسط النظرات التي تتجمع حول الأنظمة ، فالتاسك والإخلاص بالنسبة للمائلة والمهنة والأمة كلها خاضعة للطبقة الإقتصادية ... ما يحتمه الإقتصاد ، أي بكلمات أخرى للطبقة الإقتصادية ... ما يحتمه الإقتصاد ، أي بكلمات أخرى المشهدة المستهدفته هـند المحاولة يستبعد تأثير عوامل أخرى كثيرة استهدفته هـند الحاولة يستبعد تأثير عوامل أخرى كثيرة بدا . (۱) .

ونريد الآن أن نساتي إلى فلسفة ماركس نفسها. فالسؤال الأول الذي يرد إلى الذهن هو: ما هي قوى الإنتاج؟ كيف تأتي إلى هسذا الوجود؟ أهي حقاً الموامل الأولية في تطور الإنسان؟ ﴿ إِن قوى الإنتاج هي القوى التي يستخدمها الإنسان

<sup>(</sup>۱) Maclver ، المصدر السابق ، ص ۲۲ ه ... ۳۳ .

في الإنتاج الإقتصادي ، من صفات الخصب في التربة والخواص التي تتميز بها المعادن والقوى الآلية والكيمياوية في الطبيعة وحرارة الشمس وقوة البخار والكهرباء وكذلك قوى الحيوانات والإنسان نفسه ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هذه القوى وجسدت منذ وقت غير معروف ، قبل أن يبزغ فجر المدنية بكثير . ومع تقدم الزمن اتسع عقل الإنسان فاكتشف هدن القوى الكامنة في أعهاق الطبيعة ، وأزاح الحجاب عنها وسخرها لفائدته . وتاريخ الإنسان حافل بالشواهد ، على أن ذكاء الإنسان كان العامل الأول في اكتشاف هذه القوى و ولو لم يكن الأمر كذلك ، لو لم تكن حاجة إلى الذكاء لاكتشاف قوى الطبيعة واستخدامها لاكتشفتها الحيوانات أيضاً واستخدمتها . ولأنشأت المليا ، الأجناس الدنيا مدنيات بالسرعة التي تنشئها بها الأجناس العليا ، المليا ، (۱) .

ولنفرض أن المصادفات كشفت الإنسان عن كثير من قوى الطبيعة المخفية . فإذا كان هذا هو الأمر فعلينا أن نقر بأن عددا غير قليل من الاكتشافات يجب أن يكون من نصيب الحيوانات. ويجب أن تكون الحيوانات الدنيا قد أتت بالكثير من المخترعات المدهشة ، لأن المصادفات يجب أن تكون قد صحبتهم هم أيضاً.

ولكن التاريخ لا يدعم هـــــذا القول. فلم يكن للحيوان

Karl Federn, The Materialist Conception of History, P. 8 (1)

اختراع ما لأنه ينقصه موهبة التفكير البناء التي هي أمر ضروري جداً للاستفادة منه فائدة طيبة ثم إنهذه الاكتشافات لم يتوصل إليهاكل مخلوق ذي عقل ، ولم يحظ باكتشاف الأشياء الجديدة ووضع القوانين الجديدة وإزاحة الأستار عن المواد الجديدة المكنوزة في طبقات الأرض أو في الفضاء إلا ذوو الذكاء الخارق من بني الإنسان. و ملايين الأغصان نمت على الأشجار أو كانت ممددة على الأرض يمكن أن تقوم بعمل المتلات أو تكون سياجات ، وكانت في الأرض أحجار حادة كثيرة يمكن أن تتخذ سكاكين أو فؤوسا، والبخار ظل يرفع غطاء إبريق صنع الشاي مائة ألف مرة، ومع ذلك لم يصبح الاكتشاف ممكناً حق الحجر ، ورجل موهوب فرأى أن البخار الذي كان يرفع غطاء إبريق صنع إبريق صنع المبتر ، ورجل موهوب فرأى أن البخار الذي كان يرفع غطاء إبريق صنع البيق صنع الشاي يمكن أن يفيد في أغراض أعظم بكثير، (۱).

هذه الحقائق يمكن أن تتضاعف إلى أي عدد ، وهي كلها تنكر ادعاء كارل ماركس أن تطور قوى الإنتاج يقرر كيان المجتمع الإجتاعي والسياسي ، خلافاً لما يكشفه التاريخ من أن عقل الإنسان هو الذي يكتشف وينمتي قوى الإنتاج واحدة بعد أخرى .

ولو أن ماركس اكتفى بأن يقرر أن أساليب الإنتاج قـــد

<sup>(</sup>١) المصدر نفسه ص ١٠.

أثرت في الحياة الاجتاعية أو السياسية لأية أمة لما عارضه أحد. ولكنه توسع في هذا الإدعاء إلى حد الإسراف. فأعلن بإصرار أن أسلوب الإنتاج هو القالب الذي بموجبه تنمو أنظمة الأمة، وأنه الأساس الذي عليه يرتفع صرح الحياة السياسية والاجتاعية لأية أمة ، وأن وعي الأمة لا يقرر أشكال وجودها ، وإنما أشكال الحياة الاجتاعية هي التي تعين وعيها . إنه يقول : وإن بجموع علاقات الإنتاج هذه يكو"ن الهيكل الاقتصادي للمجتمع – وهو الأساس الحقيقي الذي يقيام عليه الكيان القانوني والسياسي والذي ترجع إليه أشكال معينة من الوعي الاجتاعي . إن أسلوب الإنتاج للحياة المادية يقرر بحرى الحياة الاجتاعي والسياسي والمة في كله . وإن وعي الإنسان ليس هو الذي يقرر حالة وجوده ، وإنما حالته الاجتاعية هي التي تقرر وعيه » .

واسيء المنطقي الذي يتبع هذا هو أن أسلوب الإنتاج هو الدامسل الحاسم في حياة الفرد أو المجتمع . لذا فالأشخاص أو المجتمعات التي تواجه مشاكل اجتاعية من نوع واحد يجب أن تتصرف بشكل واحد . ولكن هذا غير حقيقي والرجل الذي يواجه فقراً مدقعاً يستطيع أن يسلك إحدى سبل كثيرة . فهو قد ينهي حياته بطلقة من مسدس وقد يجنح إلى السرقة ويضحي يتخد سبيل الاستجداء وأو ينضم إلى حزب سياسي ويضحي بكل ما لديه في سبيل الواجب نحو إخوته من البشر . أما أي بكل ما لديه في سبيل الواجب نحو إخوته من البشر . أما أي هذه السبل يسلك وأيها يرفض فأمر يعتمد على تكوينه الفكرى

وميوله الشخصية وتربيته ، وتساعده في اتخاذ قراره عوامل لا حصر لها . إنه دون ربب واقع تحت تأثير الوضع الاقتصادي ، ولكن الوضع الاقتصادي لا يقرر حياته . وشبيه بذلك الجاعات والآمم . كانت ولايات الإغريق في ما بين ٧٢٣ و ٣٢٥ قبل الميلاد تجابه مشكلة زيادة السكان ، فحين ازداد ضغط همذه المشكلة زيادة بالغة قامت الولايات المختلفة بجلها حلولا مختلفة ، « فبعضها مثل كورنثوس (۱) وخالكيس (۲) تخلصت من زيادة السكان مثل كورنثوس (۱) وخالكيس (۲) تخلصت من زيادة السكان في صقلية ، وجنوب إيطاليا ، وتراقيا وأماكن أخرى . ولما كانت هذه المستعمرات الإغريقية قد أنشئت بهذا الشكل ، فقد وسعت البقمة الجغرافية المجتمع اليوناني دونأن تغير شخصيته . ولكن ولايات أخرى اتخذت حاولاً نتج عنها تغيير في طريقة حاتها .

فاسبارطة أوجدت لأبنائها الأرض بأنهاجمت أقرب جيرانها من الإغريق واحتلت أراضيهم . وكانت النتيجة أن حصلت اسبارطة على ما كانت تريده من الأراضي الجديدة ، ولكن ثمن ذلك كان حروباً متكررة لا تنتهي مع شعوب مجاورة . ولأجل معالجة هذا الموقف اضطر رجال الحكم في اسبارطة إلى أن يجعلوا

<sup>.</sup> Corinth (\)

<sup>.</sup> Chalcis (Y)

حياة اسبارطة حياة عسكرية من رأسها إلى قدمها و ذلك بإعادة القوة إلى أنظمة اجتماعية بدائية مألوفة عند عدد من المجتمعات الإغريقية ، واستخدامها ، وذلك في الوقت الذي أصبحت فيه هذه الأنظمة في اسبارطة وغيرها على وشك الزوال .

وأما أثينا فقد عالجت مشكلة السكان بطريقة أخرى . فقد وقفت إنتاجها الزراعي للتصدير وبدأت الإنتاج مم طورت أنظمتها السياسية بحيث تعطى حصة عادلة من القوة السياسية للطبقات الجديدة التي أوجدها هذا التجديد الاقتصادي وبتعبير آخر ، تفادى رجال الحكم في أثينا من ثورة اجتماعية بأن قاموا بثورة اقتصادية وسياسية . وإذ اكتشفوا هلذا الحل للمشكلة العامة بمقدار ما كان لها من أثر عليهم هم أنفسهم فإنهم فتحوا مصادفة طريقاً جديداً لتقدم المجتمع اليوناني كله » (۱).

يتضح من هذا المثال أن أنما مختلفة تعيش في ظروف اقتصادية متاثلة ولها أساليب إنتاج متاثلة اتخذت طرقا مختلفة وفقاً لمشيئتها. لذا فالقول بأن الوضع الاقتصادي أو أسلوب الإنتاج يقرر كل أشكال نشاط الإنسان خطأ. إن الطريق الذي تختاره أمة ما يمتمد على عوامل عديدة هي: النمو العقلي الذي نمته والمنهج الأخلاقي الذي تنهجه والبيئة الجغرافية والتأثير العنصري.

Arnold Toynbee, A Study of History, abridged by D. C. (1) Somervell, P. 4

إن سجل التاريخ حافل بالأمثلة التي تناقض النظرية الماركسية . فلقد كان حب الوطن أو الأمهة أو الانتساب إلى دين ما أقوى بكثير من الباعث الاقتصادي المجرد . كتب بروفيسور البكساندر غرى ملاحظة مهمة جداً هي: «لا ينكر إلا القليلون أن التاريخ إذا أريد له أن يكون شاملا يجب أن يسجل في صفحاته كل شيء عن مخزن حفظ الأطعمة في المطبخ ، ولكن في التاريخ أيضاً شيئاً كثيراً غير العامل الاقتصادى . فالإنسان لا يقصر حياته على أن يحبو على بطنه ، فكم في الحمـــاس والولاء والإيحاء والإلهـــام من حوافز للإنسان على العمل وهي ليست اقتصادية قط، ولكنهـا في الوقت نفسه تؤثر على الظروف الاقتصادية . وفوق كل ذلك ، فإن تأثير الذهن على الذهن مـــم نتائج هذا التأثير البعيدة ، وهو من أعظم أنواع التأثير في العالم، يستعصى على التفسير الاقتصادي . ولو فرضنا أنه قد يمكن أن نفسر كيف جـاء دانتي (١) ، ومحمد ، وكالفن (٢) ، وماركس ، ولوید جورج (۳) وجورج روبی (٤) حسین جاؤا فعلا ، فستبقی مسألة أكثر صعوبة بكثير وهي أن نفسر كيف أو لمساذا جاؤوا

<sup>.</sup> Dante (\)

<sup>.</sup> Calvin (Y)

<sup>.</sup> Lloyd George ( )

<sup>.</sup> George Robey (£)

في الأصل ولماذا لم يبقوا في عسالم المدم . والأمر الذي يزيد على هذا صموبة هو أن نفسر كيف يجد الرجل العظيم جماعته الذين ينطقون بلسانه ، والذين قد ينقلون تأثيره هنا وهناك في أجزاء مختلفة من المالم ، إذ أن كالفن كار عكن ألا يجد نوكس (١) ، وماركس كان يمكن ألا يكون له لينين. إن الأصوب عند تفسير التاريخ أن يتواضع المرء وربما أن يعتقد بعدم كفاية عقله لإدراك الغيبيات ، ذلك أنه يدرك أن تاريخ الإنسان إنما تكونه عوامل كثيرة ، ليس الاقتصاد إلا عاملا واحداً منها ولعله ليس أعظمها شأنًا ، (٢) . فالصراع من أجل الحصول على وسائل الحياة هو ، دون ريب ، اللون الذي تتميز بسه حياة أغلب البشر ، ولكن ذلك لا يجعلنا نزعم أنـــه هو العامل المهم الوحيد في كل مجموعة المؤثرات المتفاعل بعضها مع بعض والتي تعينالظواهر الاجتاعية. وكما ﴿ أَنْنَا لَا نُسْتَطْيِسِمُ أَنْ نَقُولَ ؛ بمِنَا أَنْ الرسام يعتمد تماماً على صندوق ألوانه ، فـــان طبيعة ما في الصندوق تفسر الصورة ، كذلك لا نستطيع أن نقول: إن كفاح الفنان من أجل الحصول على مماشه يفسرها أنه سيكون حقا استنتاجا كبيراً أن نستنتج أن الوسائل التي نستخدمها توضح تماماً الغايات التي تستخدم من أجلها هذه الوسائل ، وهو استنتاج يحتاج فيه المرء إلى براهين لا

<sup>.</sup> Knox (1)

Alexander Gray, The Development of Economic Doctrine (Y) P. 307.

يقدمها لنا ماركس، (١) إن الفنان لا شك يستمد همكل صورته من العالم الخارجي، إلا أن الشيء الذي يضفي على الصورة سحراً وأصالة هو الروح التي تنفخها عبقرية فكره في ذلك الهيكل . فشيكسيير مثلا استقى المادة التاريخية للمسرحبات الرومانية الثلاث : يوليوس قيصر ، وأنتوني وكليوبترا ، وكوريو ليناس منترجمة سير توماس نورث (٢) لنسخة الأسقف آميو (٣) الفرنسية من كتاب ( تاريخ حياة رجال ) ليلوتارك (٤) ، ولكن الشيء الذي أعطى هذه القصص حياة هو المرض العبقري الذي عرضها بي من الشعر والذي كساها بثوب نفيس من الشعر وجمل أشخاصها على اختلافهم، رجالاً ونساء، يبدون أحياء. وما من أحد يستطيع أن يقول أن شيكسبير كتب تلك المسرحيات لآنه استمد المادة من پلوتارك. إذ لوكانت قراءة هذا الكتاب وحدها كافية لكتابة هذا النوع الراقيمن المسرحيات لاستطاع كثيرون غيره أن ينالوا ما ناله من حظ عظيم . ولكننا نجد أن عبقرية شيكسبير التي لا تضاهى هي وحدها التي أكسبته هذا المقـــام الفريد في تاريخ الأدب المسرحي ، فالجمال الحقيقي في

<sup>(</sup>۱) Maclver المصدر السابق ، ص ع ٦ ه .

Sir Thomas North ( 7 )

Bishop Amyot (\*)

Plutarch's Lives ( £ )

مسرحياته ليس في القصة ، وإنما في طريقة بناء المشكلة (١) ، وهو من أجل بلوغ هذا القصد ينتخب بدقة أهم التفاصيل ويبعد كل ما ليس له أثر في تكوين الانطباع الكلي، وهكذا نرى أن ذكا، شيكسبير هو الذي صور طينة مادة مسرحياته أرواحاً حية ، وموهبته العقلية هي التي حولت المعدن الرخيص ذهبا خالصاً.

وكذلك الأمر في عالم الأحياء. إننا نتأثر بالبيئة المادية التي نعيش فيها ، إلا أن فكرنا هو الذي يعلمنا أن نغير هذه البيئة المادية لكي تلاثم أغراضنا المختلفة. إن العالم المادي لا يقرر وعينا وإنما وعينا هو الذي يقرر الوجه الذي سنستخدم فيه مواردنا المادية . فكل شيء يجب أن يكون موجوداً في الفكر قبل أن يكن وجوده في العمل . لذا فقوى الإنتاج لا تصنع نفسها ، وإنما يصنعها عقل الإنسان . فبالرغم من أن الإنسان يتأثر بالحياة وإنما يصنعها عقل الإنسان . فبالرغم من أن الإنسان يتأثر بالحياة المحيطة به ، لا يمكن اعتباره مجرد عجينه لا شكل لها تصب في قوالب البيئات المادية ، إذ أنه يستطيع أن يغير بيئته .

إن كارل فيدرن يلاحظ ملاحظة بارعة فيقول: وإن قوى الإنتاج وظروف الإنتاج تؤثر دائمًا على بعضها ويقرر بعضها بعضاً. كما أن اختراع أسلحة جديدة يؤثر في الحروب ويحدد نتيجتها ، والحروب تؤدي دائمًا إلى اختراع أسلحة جديدة

Plot (1)

وأشكال جديدة من التنظيم العسكري ، ومع ذلك فلن يزعم إلا مخبول أن تطور الأسلحة وتنظيم الجيش هو سبب الحرب والعامل الأساسي في التاريخ العسكري ، (١).

إن ادعاء ماركس بشأن الفكرة المادية عن التاريخ خاطىء إلى درجة أن إنجيل (٢) ، وهو أوثق تلاميذ ماركس ، شعر بضعفها وقلل من حدة تعبيرها الجازم بقوله : إن الفكرة المادية عن التاريخ تقول : إن عامل التقرير في التاريخ هو في النهاية الإنتاج وإعادة الإنتاج في الحياة الواقعية ، وما ادعى ماركس ولا ادعيت أنا أكثر من هذا . لذا فإن حرّف شخص ما هيذا القول إلى الادعاء بأن العامل الاقتصادي هو وحده المقرر فإنه يحوله إلى كلام لا معنى له ولا علاقة له بالواقع وغير معقول . إن الوضع كلام لا معنى له ولا علاقة له بالواقع وغير معقول . إن الوضع الاقتصادي هو الأساس ، ولكن العناصر المتعددة للبنيان الذي يشاد عليه ، والأشكال السياسية للصراع الطبقي ونتائجه ، والأشكال السياسية للصراع الطبقي ونتائجه ، والأشكال القانون ، وبعد ذلك حتى انمكاسات وما سوى ذلك ، وأشكال القانون ، وبعد ذلك حتى انمكاسات كل هذه المعارك الحقيقية في أذهان المتحاربين ، والنظريات كل هذه المعارك الحقيقية في أذهان الدينية وما أصابها من غو مع أنظمة المذاهب والعقائد ، كل ذلك يؤثر أيضاً على مجرى

<sup>.</sup> ۲۲ سابق ص ۲۲ المدر السابق ص ۲۲ . Karl Federn (۱)

Engels ( Y)

الكفاح التاريخي .. وفي كثير من الأحوال يكون له الغلبة في تعيين شكلها . إن هذه العوامل يعمل بعضها في بعض، وفي عملها هذا فإنها وسط حشود الحوادث جميعًا – تؤكد الحركة الاقتصادية على أنها ضرورية ، (١) .

إن قراءة دقيقة للفقرة التي أوردناها آنفا كفيلة بأن تكشف لنا أن الموقف الذي وقفه أنجاز يختلف عن موقف أستاذه . فهو يخبرنا بأنه بالرغم من أن العامل الاقتصادي ضروري ، فياعناصر أخرى متعددة تدخل أيضا في عملية تكوين الأشكال الاجتماعية . بيد أن دعوى ماركس تختلف عن هذا ، فهو يعتقد بأن الوضع الاقتصادي يقرر طبيعة العوامل الآخرى التي تدخل في تكوين المجتمع . لذا فإن ماركس يعتبر كل جوانب الحياة في تكوين المجتمع . لذا فإن ماركس يعتبر كل جوانب الحياة الإنسانية أموراً ثانوية تنتج عن الحاجات الاقتصادية ، أما إنجلز في عقد أن آهم المناصر المختلفة كلها هو الحاجة الاقتصادية . إن في هاتين النظريتين إختلافاً هائلاً .

من حسن حظ البشرية أن أخطاء الماركسية تنجلي الآرف أكثر فأكثر بمرور الزمن . فقد رفض نظرته المادية للتاريخ حتى أشد الناس احتراماً له . خذ مثلاً بروفيسور ج . د . ه . كول (٢) فإنه يرفض أن يعترف بالعامل الاقتصادي على أنه العامل الوحيد

<sup>(</sup>۱) Karl Marx المصدر السابق ، ج۱، ص ۲۱)

Professor G. D. H. Cole (Y)

الذي يقرر الكيان الاجتماعي لأية أمة ، ويقول في كتابه ( معنى الماركسية ): « من السهل أن نتتبع التشابه الكبير بين الهياكل الاقتصادية التي تبنى عليهـــا أنواع المجتمعات المختلفة وتنظيمها السياسي وأجهزتها الاجتماعية وأن نرى كيف كشيفت الهياكل السياسية والاجتماعية في الماضي وفقاً لتغير الظروف الاقتصادية الأساسية. إلا أن التأكيد على هذا إلى حدد مفرط في البعد أمر خطير . فليس حتما أن تكون المجتمعات التي في مستوى واحد من حيث أسلوب الإنتاج متاثلة في الأنظمة أو الأشكال الاجتاعدة للمائسلة والملاقات الجماعية ، والمنظمات السياسية والدينية ، أو الأفكار الخاصة بالقيم والأخلاق. فلقد أظهرت بحوث عسلم الإنسان (١) أشكالاً حضارية مختلفة جداً، لا يمكن قط أن تفسر تفسيراً اقتصادياً محضاً . إن أقصى ما يثبته هسذا التشابه الذي تبين لنا وجوده ، إنما هو بجرّد الاقتناع بأن الأنظمة الاجتاعية تتأثر بالظروف الاقتصادية ــ لا أنها تتمين بهــا وحدها . إن الأساس الاقتصادي للمجتمع عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة ، حق ولوكان أهم عامل (٢).

ما أشد اختلاف هذا عنما قاله ماركس! فقد قال ماركس: د يجب أن لا نبعث عن الأسباب النهائية لكل تغيير اجتاعي

Anthropology ( \)

Professor G. D. H. Cole, The Meaning of Marxism, P. 57 (Y)

وثورة سياسية تحصل في عقول الناس في النظرة الخيرة العميقة في الحقيقة والعدالة الأزليتين ، بـــل يجب أن نبحث عنها في التغير الذي يحصل في أساليب الإنتاج وحدها » . لذا فان ما يراه ماركس هو أن الاقتصاد وحده يحدنا بسبب التغير . وبناء عليه فالفن والدين والقانون وما سوى ذلك لا وزن لها في صياغة الظروف الاقتصادية ، بل هي نفسها نتيجة هـــذه الظروف . ويعترف بروفيسور (كول) بتأثير عوامل أخرى كثيرة فضلا عن عامل الاقتصاد .

يرى ماركس أن كل الجوانب الختلفة من حياة البشر ، إغا تصوغها الظروف الاقتصادية التي تكتنف حقبة مما ، وبذلك فهي مدينة بوجودها تماماً إلى العوامل الاقتصادية . غير أن (كول) يعتقد أن العوام الآخرى مستقلة عن الظروف الاقتصادية . إنه لمن دواعي الثناء على ماركس أنه بفضل مهارته استفاد من الألفاظ والعبارات ذات المعاني المتعددة التي يمكن أن تفسر بأية طريقة وفقاً لضرورات الزمن . ومن هذه الألفاظ وتطور قوى الإنتاج » . يقول ماركس : « إن ظروف الإنتاج تتفق مع مرحلة تطور قوى الإنتاج المادية » . فالسؤال الذي يرد في ذهن المرء الآن طبعاً هو : ما هي اللحظة الحاسمة في التطور ؟ أهي المرحلة الأولى حين يتم اختراع أو اكتشاف ما الاستخدام والاستفادة ويجرب ، أم الوقت الذي تصبح فيه الاستخدام والاستفادة ويجرب ، أم الوقت الذي تصبح فيه

فائدته عامة وتأثيره ظاهراً في المجتمع؟ إن كتابات ماركس تبين أن الفكرة التي كانت في ذهنه هي أنه الوقت الذي يكون فيه استخدام القوى الجديدة كثيراً جداً والمجتمع قد تأثر بها إلى حد كبير ، إذ أن المرء لا يستطيع أن يتحدث عن التطور الاجتاعي في ذلك الحين . يتفق الماركسيون جميعاً على أن تطوراً ما في ظروف الإنتاج يجب أن يحدث قبل أن يمكن المجيء بقوة إنتاج جديدة من ذوع جديد تماماً . من المستحيل أن تجعل أي اختراع جديد كثير الاستعبال وشائعاً دون أن تجمع رأس المال الضروري وتقوم بالتدريب الصحيح وتغيير الأذواق والميول لقبول هذا التغير ، وإلا أخفقت كل الجهود لجمل الاختراع شائماً. هذه هي السبيل الطبيعية التي تتخذها الاختراعات . وهذا الطريق يمثل تحدياً لنظرية ماركس ، إذ و أنه ليس ظرف الإنتاج هو الذي يحده يعتمد على تطور قوى الإنتاج ، وإنما قوى الإنتاج هي التي يقرها تطور مسا في ظروف الإنتاج ، ما أشد هذا التحريف يقرها تطور مسا في ظروف الإنتاج ، ما أشد هذا التحريف للحقيقة !

لقد حرف ماركس كثيراً من الحقائق ، كما فعسل هيغل (١) وشينغلر (٢) ، وتجاهل بعض الحوادث المهمة في التاريخ التي لم تؤيد ما ذهب إليه من أجل أن يجعل نظريته تبدو مستساغة .

Hegel (\)

Spengler (Y)

ولأجل أرن يثبت أن نظرياته صحيحة استخدم الحوادث التي وقعت في د الأغوار البعيدة من الزمن ۽ مما لا يمكن التحدث عنه بشيء أكيد، ومما يمكن أرن يفسره المرء بسهولة أي تفسير يشاء . ثم أنه يصعب ، بل يستحيل، الوصول إلى أية حقيقة على أساس هذه الحوادث التي وقعت قبلالتاريخ، فهي مغطاة بحجاب كثيف من الزمن ولكن ماركس وأنجاز بنيا كل مجوثها عليها. فانتخبا مقداراً لا بأس به من دراسات مورغان (١) عن قبائل إروكوي (۲) وكتاب جورج لودفينغ فون ماورر عن العادات البلدية وعادات الأراضي الزراعية عند قدامي الألمان (٣). وهذان الكتابان يبحثان كيف كانت الحسال في عهد ما قبل التاريخ. إن فيهما مما يدعو إلى التفكير أشياء أكثر من مجرّد الحقائق الجامدة. فكل شيء غامض ومغطى بالضباب. فالمرء يستطيع أن يثبت أي شيء ويبرهن على أي شيء بواسطة المادة المعطاة فيهما . فهي يمكن أن 'تحر"ف بسهولة لأجل الوصول إلى نتائج كانت في الذهن بادىء الأمر. وها نحن نأتي بمثال واحد لنوضح كيف 'تحرّف' الحقائق بشكل فظيع .

مثال مقتبس من ما كتبه كيونو (٤) ، وهو مفسر مشهور

Morgan ( \ )

Studies of Iroquois (Y)

George Ludwig von Maurer's Work on the Municipal and (Y) Agrarian Customs of the Ancient Germans.

Cunow (()

لنظرية ماركس. إنه يقول: ﴿ إِنْ القبائل الرحل والتي تعيش على الصيد تنظر إلى المرأة نظرة احتقار لأن المرأة لا فائدة منها في الصيد وتربية الماشية وغير لائقة بدكيياً للقتال الذي تكون هذه الشعوب المقاتلة مشتكة فيه دائمًا، ولكن لما أخذ الشعب بالزراعة وأصبحت الزراعة عملا مهما في المجتمع ، ارتفع مركز المرآة أيضاً في ميزان التقدير، وأخذ الرجال ينظرون إليها من زاوية ناعمـــة لاخشونة فيها ، فأخذوا ينظرون إليها باحترام وتقدير. إن السبب الأكبر لهذا التغير الجذري سبب اقتصادي عض . فيا أن المرأة أصبحت ذات فائدة للناس في نواح عديدة مكانتها. أيمكن أن يكون شيء ما أكثر غرابة من هذا ؟ إذ أننا أولا لا يمكننا أن نجزم بـان المرأة كانت تحتقر عندكل قبائل العالم. ففي الهند كانت المرأة دائمًا موضع احترام كبير. وثانياً إن بين ما هو مسجل لدينا أن شعوباً عديدة كانت رغم كونها زراعية لا تحترم نساءها . وعند الرومان ، وكذلك عند قدامي الألمان ، كان مركزها القانوني ، على الأقل ، مركز العبد (١١) . ويستنتج ممسا قرره (كيونو) أنه بما أن المرأة مفيدة في الزراعة فهي تحظى بالاحترام . أي أن الاحترام هو لعملها . ولكن مسا أشد خطأ هذه النتسجة ! لقد أصاب (كارل فيدرن) حين قال :

<sup>(</sup>١) Karl Federn (١) المسدر السابق ، ص ٤ ه .

« وحق لو صرفنا النظر عن كل هذه الحقائق التي تثبت عكس ذلك فإن الفكرة التي تزعم أنه بما أن المرأة قد عملت في الحقول فيجب أن تكون قد نالت الاحترام وأعطيت مركزاً قيادياً في المجتمع ، هي نفسها فكرة غريبة مضحكة . فسق وأين سجل التاريخ ، أن العمل وحده قسد قاد إلى مركز كريم وإلى القوة والسلطة ؟ وحق في وقتنا هذا ، فإن الكرامة والشرف اللذين يعطيان له محدودان جداً، فها موجودان بصورة عامة في المكات يعطيان له محدودان جداً، فها موجودان العمل يفرض على المرأة وعلى الضعفاء ومن لا شأن لهم . لقسد كان العمل مفيداً للفاية ، ولكنه لم يكن موضع تكريم . بسل كان المكرمون هم الأقوياء ولكنه لم يكن موضع تكريم . بسل كان المكرمون هم الأقوياء ولكنه لم يكن موضع تكريم . بسل كان المكرمون هم الأقوياء حق العمل ، بل إنهم ليؤكدون عليه تأكيداً شديداً . فكيف إذن يستطيعون أن يزعموا أن العمل الزراعي الذي قامت بسه المرأة بعملها تنال السلطة والقوة؟ إنهم لا يستطيعون أن يقروا الأمرين جملها تنال السلطة والقوة؟ إنهم لا يستطيعون أن يقروا الأمرين المناقضين » .

إن حال المرأة لم يتحسن لمجرد أن العالم خرج من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة. إنما تحسن بالحركات الدينية التي قادها الأنبياء في الحقب المختلفة من تاريخ البشر. فالاعتقاد المسيحي بأن الروح الخالدة التي في الإنسان ، هي النفس الحقيقية الدائمة التي قد كتب لها أن تعيش الحياة الأبدية . هسذا الاعتقاد غير تقدير قيمة النفس الحقيقية للمرأة ، فجعل روحها كروح الرجل تقدير قيمة النفس الحقيقية للمرأة ، فجعل روحها كروح الرجل

لا يمكن أن تثمن، وبذلك حاول المسيح أن يحسن حالها . ومع ضعف هذه الحركة ضعف شأن المرأة فصار شأنها —حتى في بيت أبيها — شأن الخادم . وكان أبوها يستطيع أن يبيعها إذا كانت دون سن الرشد ، وإذا مات أبوها كان للأبناء أن يتصرفوا بها كا يشاؤون وتهوى أنفسهم . ولم تكن البنت ترث شيئا إلا حين لا يكون وارث من الذكور .

وما أن ظهر الإسلام حتى رفع شأنها الاجتماعي مرة أخرى ، معلناً نداء الله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ».

(النساء : ١)

هذه الآية وثيقة عظمى للمساواة والكرامة للمرأة . لقد كانت رسالة عظيمة لتحرير المرأة وإطلاقها من أسارها ، ولرفع مستوى كرامتها وحقوقها بشكل مدهش ، حتى ليستحيل أن يخطر ببال إنسان أي شيء أرفع أو أسمى . لقد ضمن الإسلام للمرأة حقوقاً لم تكن قدد نالتها من قبل ، وساوى بينها وبين الرجل مساواة تامة في الحقوق والواجبات القانونية جميعاً .

كانت هذه الحركة الدينية أشد القوى دفعاً ، فقد أحدثت ثورة شاملة في وضع المرأة الاجتماعي ومكانتها . فهل يستطيع أحد بعد أمام هذه الحقائق ، أن يزعم أن كل هذا ، إنما كان لموامل اقتصادية ؟ ولعل قائلاً يقول : إن هذه الأوامر الدينية

نفسها نتيجة للبيئة المادية، وإن العوامل الإقتصادية وحدها هي التي ولدت هذه الأديان، ولذلك لم يكن ما جاءت به الأديان وحياً من عند الله إلى الأنبياء، وإغماكان من متطلبات الزمن في ما يتعلق بالضرورة الإقتصادية، غير أن الناس البسطاء قمم ضلط أو افاعتبروها همدى من الله. لقد عبر عن هذه الأفكار فريدريك إنجاز في كتابه (ضد دهرنك)، فقال: « ليس الدين سوى انعكاس خيالي وهمي في أذهان الناس من القوى الخارجية التي تسيطر على حياتهم اليومية، وهو انعكاس تتخذ فيه قوى هذا العالم شكل قوي قوق المادة » (١).

ولكن أفكار ماركس لا تدعما حقائق التاريخ، فإذا كانت أساليب الإنتاج تعتبر حقاً القواعد الحقيقية التي تقرر كل البنيان الذي يشاد عليها، والدين جزء من هذا البنيان، فسنضطر إلى أن نصل إلى أن تماثل أسلوب الإنتاج يجب أن يؤدي إلى تماثل الحركات الروحية والنظم التي ينتجها.

ولكن الأمور في العالم تختلف تماماً. فنحن نجد أن مئة دين ودين تعيش كلما متجاورة في ظروف اقتصادية واحدة. فلو كان الدين مجرد إنعكاس للظروف المادية التي يميش فيها الناس لما وجد أكثر من دين واحد في وقت واحد. ولكننا نجد أن الإسلام والمسيحية والهندوكية وعشرات الأديان الأخرى تسبطر

Anti - Duhring , P. 353 ( \ )

على عقول ناس يعيشون في ظروف إقتصادية واحدة . لقد عاش الهندوس والمسلمون في ظروف إقتصادية واحسدة يسودها نوع واحد من أساليب الإنتاج مئات السنين ، ولكن هذه القوى ، مع كل قوتها، أخفقت في أن تصهر هذه الطوائف في كتلة واحدة . فهم اليوم مختلفون اختلافاً كبيراً في الدين كا كانوا مختلفين قبل فهم اليوم مختلفون اختلافاً كبيراً في الدين كا كانوا مختلفين قبل للنه السنين .

إن النظرة المادية للتاريخ تقتضي أن الظروف المادية في الهند كان يجبأن تولد دينا واحداً يبتهج الهندوس والمسلمون باتباعه وبذلك يتركون العهد الذي كانوا يعيشون فيه طائفتين مختلفتين. وكذلك الأمر في الأنظمة الأخرى والأخلاق. إن صحائف التاريخ ملأى بالبراهين على أن الأنظمة المختلفة نحت حصى في أحضان بيئة مادية واحدة. إن الرومان ، وكذلك المسلمون الأولون ، هم في التقسيم الماركسي المعساوم المهود التاريخية ، ينتمون إلى مجتمع الرقيق ، أي أن البنيان الإقتصادي المجتمع الروماني ، وكذلك البنيان الإقتصادي للمجتمع الروماني ، وكذلك البنيان الإقتصادي للمجتمع الإسلامي الأول كانا يرتكزان على قاعدة الاسترقاق . وكلاهما كان يستخدم وطبيعي إن على المرء ، حسب النفرية الماركسية ، أن يستنتج وطبيعي إن على المرء ، حسب النفرية الماركسية ، أن يستنتج وطبيعي إن على المرء ، حسب النفرية الماركسية ، أن يستنتج كلا المجتمعين . وكذلك يجب أن تكون نظرة السادة الرومان والسادة المسلمين نحو عبيده متشابهة . ولكن هدا هو التاريخ والسادة المسلمين نحو عبيده متشابهة . ولكن هدا هو التاريخ

ينةل لنسا أن وضع المبيد عند الرومان كان يدعو إلى الرثاء إلى حد بعيد . « كان العبيد ، سواء من كان منهم من أهل البلاد أم من الأجانب ، من أسر في الحرب أو اشتري بالمال ، كانوا كلهم يعتبرون بجرّد أثاث . فقـــد كان لسادتهم أن يبقوهم أحياء أو يقتلوهم . وكان كل نبيل من نبلاء الامبراطورية علــــــك آلاف العبيد ، وكانوا يعذبون أنواع العذاب الذي لا يوصف، ويجلدون جلداً لا رحمة في حتى إذا كان الذنب بالغ التفاهة ، . إنهم في الحقيقة لم يكونوا يعيشون ، وإنما يتنفسون ، وكانت أنفاسهم مجرد تنبدات. لقد كانت الحياة عبناً عليهم. أما معاملة العبيد عند المسلمين ( الذبن كانوا يعيشون في تلسك المرحلة نفسها من مراحل التطور الإقتصادي) فكانت تختلف عاماً ، إذ كانت تمتاز على معاملة الرومانيين للعبيد امتيازاً لا حدود له أبداً. فقد سمح الرسول الكريم للأرقساء أن يشتروا حريتهم بالأجور التي يتقاضونها عن أعمالهم. وكذلك قدال بتسليف مبالغ من المال للعبيد من بيت المال ليشتروا حريتهم. ووضع واجب الإحسان إلى المبد في منزلة صلة ذوي القربى والجار ورفيق السفر وعابري السبيل (١). وشجع على عتق الرقيق إلى أقصى حد، وإعطائهم

<sup>(</sup>۱) يشير إلى قوله تمالى: ( واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى والجار الجنب والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والمساحب بالجنب وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ) .

مع المتق شيئاً من المسال الذي أعطاه الله للمسلمين ، وحرم أن يستغل السادة سلطتهم على إمائهم فيكرهوهن على البغاء ، ووعد بأن يسبغ رحمته على من يقع عليها الإكراه . وحرم على السادة أمروا أن يكلفوا عبيدهم بأكثر مما هو معقول وعادل . ثم إنهم أمروا بأن لا يخاطبوا عبيدهم أو إماءهم بكلمات تغض من مكانتهم ، بأن لا يخاطبوا عبيدهم أو إماءهم بكلمات تغض من مكانتهم ، بل بالإسم المليء بالعطف (فتاي وفتاتي) . كذلك كان الأمر بأن يلئبس العبيد و يطشعموا مثل سادتهم وسيداتهن تماماً . وفوق كل ذلك ، كان الأمر بألا تفصل أم عن وليدها ولا أخ عن أخيه ولا والد عن ولده ولا زوج عن إمراته ولا قريب عن قريمه (١) .

ما أكبر الفارق بين نظرة الرومان ونظرة المسلمين نحو عبيدهم اهذا لفز لا يستطيع الماركسيون قط أن يحاوه بنظريتهم يقول إنجاز في رسالة له إلى فرانتس ميرنغ: « إن صورة الحقبة الزمنية ، كا تنعكس في عقل الإنسان ، يعينها شكل الإقتصاد والظروف الإجتاعية التي تنتج عنه . وهده الصورة المنعكسة تكوّن بيئة عقلية تعمل كوسط يتكوّن من أفكار ومشاعر ، يتلقى فيه (٢) الإنسان — حسب مركزه الاجتاعي — انطباعاته ومشاعره وآراءه (٣) . إلا أن الظروف الحقيقية في العالم تختلف

Syed Amir Ali, The Spirit of Islam, 263 - 4

 <sup>(</sup>١)
 (١)
 أي في هذا الوسط .

Letter to Franz Mehring, Jan, 25, 1894 (T)

كثيراً. فنحن نواجه كل يوم أناساً ، هم على كونهم من طبقة واحدة وبجوعة واحدة ، بل وأسرة واحدة ، ذوو آراء تختلف قاماً. وليس الأفراد وحدهم ينمون على خطوط مختلفة تما الاختلاف ، بال حتى المدنيات . إن أسلوب الإنتاج عند أمم كثيرة العدد كان مشابها كل الشبه لما كان عند الإغريق ، ومع ذلك لم ينتيج أحد منها فنا ولا مدنية يمكن أن تقارن قط بفن الإغريق أو مدنيتهم . لقد انبثقت مدنية مايا (١) وسط وابل الأمطار الإستوائية وخضرة غواتيالا وهندوراس البريطانية ،

<sup>(</sup>۱) مايا Maya كلمة تطلق على الهندي الذي ينتمي إلى أوسع وأهم قبائل المياويين التي تتكون أغلبية كبيرة من سكان شبه جزيرة يوكانان Yucatan شمال غواتيالا وهندوراس البريطانية . كان الماياويون من أرقى هنود أمريكا مدنية . فكانوا أول شعب هندي ابتكر أسلوب الكتابة الهيروغليقية وأنتج الورق والكتب . كان تقويهم المقد يعتمد على الملاحظة الفلكية . وتحتوي أنقياض مدنهم على معابد وقصور ذات تصاميم تسدل على المهارة ونقوش زاهية . أما معرفتنا بتاريخهم السياسي فقليلة . ويبدو أن هذه القبائل قسد حصلت على درجة ما من الوحدة السياسية ، لا سيا في القسم الأوسط والجنوبي الشرقي من والميمهم ، في الفترة التي تقع بين ٠٠٠ و ٠٠٠ تقريباً بعد الميلاد، والمعروف بالامبراطورية القديمة ، أمسا الامبراطورية الجديدة ، فقد تركزت تقريباً في بوكانان . وتبعها فترة نزاع على الزعامة بين دول الولايات في الشال ، وظهور بوكانان . وتبعها فترة نزاع على الزعامة بين دول الولايات في الشال ، ونشوب عروب مع التولتيكيين Cakchikels وبالمورية المدين على المرابط والمدن في القرن السادس عشر . أما يوكانان تغلب الاسبانيون على أكبر القبائل والمدن في القرن السادس عشر . أما يوكانان . تغلب الاسبانيون على أكبر القبائل والمدن في القرن السادس عشر . أما يوكانان . تقع جنوب شرق المكسيك .

ولكن لم تنبثق حضارة كهذه عن وحشية ، وفي ظروف تشبه الظروف على الأمزون والكونغو ــ كيف يفسّر الماركسيون هذا ؟ إن تأثير البيئة الإقتصادية على الأفراد وتأثيرها بواسطتهم على المجتمع حقيقة لا يستطيع أحد نكرانها . غير أن رد الفعل يعتمد على شخصيات الأفراد والبنيان الأخلاقي للمجتمع الذي يعيشون فيه . وليس يعوزنا أمثلة تساندنا في أنه من عائلة ذات رجال أغنياء ظهرت جذوة العاملين الاشتراكيين الذين أخذوا على عاتقهم قضية الفقراء وتحمسوا لها كثيراً ، ولم يترددوا حتى في أن يضحوا بحياتهم الغالبة من أجل قضيتهم ، ولو أن الطريق الذي كان العقل يقضي بأن يسلكوه هو أن يجمعوا كل أغنياء مصلحتهم الثابتة التي لا شك فيها. لقد أثار كارل فيدرن ملاحظة مهمة جداً حين قال : ﴿ إِنْ ظَهُورِ هُؤُلًّا الرَّجَالِ الذِّينَ فَتَحُوا لجيلهم جوانب جديدة في التفكير أو الذين قادوا جيلهم في بعض المواقف الدقيقة ليس قط مرتبطاً أو معتمداً على ظروف الإنتاج فـــإذا أراد أحد أن يقول إن تطور قوى الإنتاج ، وظروف الإنتاج الموجودة هي سبب ولادة أمثال (كانت)(١) و (نيوتن)(٢)

Kant (1)

Newton (Y)

و (روسو) (۱) و (ميرابو) (۲) و (غوتة) (۳) و (نابليون) (۱) من الرجال الذين امتد تأثيرهم إلى قسم كبير من الأرض ودام وسيدوم زمناً لا يعرف مداه ، فإن عليه أن يبرهن ويوضح لماذا وكيف سببت ظروف الإنتاج مولد هؤلاء الرجال في ذاك الوقت بالذات ، وإلا كان ادعاؤه كلاماً باطلاً لا يعدو أن يكون قد جاء به اعتباطاً (۱).

و لهذه النظرية جانب آخر . فنحن إذا فرضنا أن الأخسلاق في عصر مسا مجرد إنعكاس لأسلوب الإنتاج الذي يعيش فيه جماعة من الناس نتج من ذلك أن الأخلاق في كل حقبة تاريخية قالية ، لا بسلا أن تكون حتما أسمى من أخلاق العصر الذي سبقها ، لأننا قد علمنا من ماركس أن النظام الإقتصادي الذي يوجد في حقبة معينة من التاريخ يحل محله دائماً نظام أرفع لأن قوى لإنتاج الجديدة المتولدة فيه قد نجحت في هدمه . وبما أن النظام الإقتصادي الجديد الناشىء من القديم هو بصورة عامسة نقد ، وبصور درجة أرفع من المدالة الإجتاعية ، فالواضح أنه يجب أن ياتي معه بأخلاق أسمى . لوكان التاريخ سجلا لتقدم يجب أن ياتي معه بأخلاق أسمى . لوكان التاريخ سجلا لتقدم

Rousseau ( )

Mirabeau (Y)

Goethe ( w )

Napoleon (t)

<sup>(</sup>ه) Karl Federn المسدر السابق ، ص ۹۹ س ۹۹

مستمر من جميم نواحيه لكان هــــذا حسناً. ولكنه بالمقدار نفسه سجل لفساد وانحطاط. ورغم الخطوات الواسعة الهائلة التي استطاع الإنسان الحديث أن يخطوها فيتسخير قوى الطبيعة لخدمة حاجاته المادية ، ورغم التقدم الذي يحرزه العلم كل يوم في شكل اختراءات لا تخطر للإنسان في الخيال، فإن الأخلاق عند ويعترف (جود) (١) بذلك صراحة إذ يقول : « لقد أعطانا العلم قوى تليق بآله\_\_ة ، ونحن نجلب لاستخدامها عقليات صبيان ووحوش . . أنظر إلى الطائرة التي يدوي صوتهـا وهي تخترق السياء الصافية في الصيف، لقد تظافرت في صنعها معرفة الإنسان بالرياضيات وعلم الحركة والآليات ومعرفته بالكهرباء والاحتراق الداخلي وعبقريته في تطبيق المعرفة ، ومهارته في صنع الخشب والمعادن ، وهي جميعاً توحي بأن مستوى مخترعيها فوق مستوى البشر . ثم إن الجرأة والعزم والشجاعة التي أبداهـــا الطيارون الأوائل كانت صفات أبطال . أما الآن فانظر إلى الغرض الذي من أجله استخدمت الطائرة الحديثة ، والذي يبدو أنها ستظل تستخدم من أجله بازدياده . إنه «إلقاء القنابل التي تدمر وتخنق وتحرق وتسمم وتقطـم أوصال أناس عز"ل ، (٢).

Joad ( )

A Guide to Modern Wickedness, pp. 262 - 263. (Y)

فإذا كانت الأخلاق إنعكاساً لأسلوب الإنتاج ، فقد كان يجب أن تكون أخلاق زماننا هذا أسمى الأخلاق . إن أساس هذا الوهم الذي وقع فيه ماركس وأتباعه ، أنهم لم يفرقوا بين تقدم الذي والتقدم الأخلاق .

فهان بين الوعي الأخلاقي والوعي العقلي عند الإنسان فرقاً هائلاً. ويرجع أصل هذا الخطأ إلى دارون الذي أكد على فكرة بقاء الأصلح في عملية التطور. ومن هذه الفكرة استنتج ماركس خطأ أن التطور الإجتماعي كان في الحقيقة تقدماً إجتماعياً.وفضلا الصناعة فيالقرن التاسع عشر أمرا آخر جعله يعتقد بأن التيارات الرئيسة للظواهر الإجتاعية كانت كلها تؤدي إلى التقدم الإجتاعي ولكن الأخلاق ليست انتصاراً على الزمان والمكان ، بــل على أهواء المرء. لذا فهي أمر يتعلق بالإرادة وبتوجيه النفس في تلبية متطلبات قـــانون أسمى . لذا فهي تتقدم وتتأخر وفق إرادة الناس ، فقد تصل في وقت ما إلى الذروة ، ثم تتردى في ما بعد إلى الحضيض. إن ذلك يعتمد اعتاداً تاماً على اختيار الناس الذين لهم استعداد لكي يوجهوا حياتهم وفقًا لمقاييس أخلاقية معينة . وهذا يرجب أن تتبعه تضحية اختيارية منهم. لا يستطيع أحد ار. يذكر أن المسلمين الأولين بلغوا بقيادة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين الأربعة ذرى سامية من الأخلاق لم يصل إليها المالم الإسلامي بعدهم أبداً . كان المجتمع في زمانهم ذا نظام تام ؟

فكان كل امرىء يغار على حقوق غيره ، فسلم يكن استغلال اقتصادي ، ولم يكن تمييز في اللون ولا عصبية لعنصر . كان المسلمون الأولون دائمــا أتقياء ملتزمين بدينهم في أعمالهم ، لا تفارقهم خشية الله ولا الاخلاص لدينهم . كانوا دائمًا مستمسكين بالمبادىء السامية التي علمهم إياها محمد عَلَيْمُ لا يتخلون عنها في السلم والحرب ، وفي الخيام والمعسكرات . ولكن لمــا أقام الأمويون حسكم الفرد انخفض مستوى الاخلاق عند الشعب ، فلم يبسق الأمراء الأمويون رؤساء لدولة كبيرة يحكون لمجرد إسعاد الناس ورفع شأن الدين ، وأخــذ الشرف والاستقامة يذوبان ، وبدأت الشهوة النشهيمة إلى الحكم تنخر مقومات حياة المجتمع. فذبح الناس وانتهكت حرمات النساء واسترق الأطفال. ثم لما جاء إلى الحكم عمر بن عبد العزيز ارتفع التيار ، فلقد كان أميراً فاضلا وحاكما صالحا ومسلما تقيا يخاف الله فلم يدخر جهدا في جعل حياته الشخصية وحياة رعيته من المسلمين كعياة المؤمنين الأولين. وحين جاء العباسيون إلى الحكم ساءت الآخلاق مرة أخرى بالرغم من أن استبداد هؤلاء الحكام ساعد على الازدهار المقلي والرفاهية المادية للأمة الإسلامية . لقـــد كان ما حققه المسلمون عقليا يمثل دون شك تقدما كبيراً ومع ذلك فقد كانت الأخلاق تنحط.

 العادة تبدأ مدنية جديدة من حيث انتهت المدنية السابقة. وهي تبني كيانها على أسس المدنية القديمة وتستفيد فائدة تامة بما سبق إنجازه. وومع اتساع مناطق المدنية وبالأساليب الراقية لتسجيل الاختراعات، يصبح أي مكسب فني علمي أو ذي علاقة بالمنفعة العامة ملكا دائما ضمن التراث الإجتاعي، وشرطا يعتمد عليه الحصول على المزيد من المكاسب ». ولكن أمر الحضارة يختلف عن هذا ، فهي تمثل كيان الشعب المقلي ، وطريقته الخاصة في النظر إلى الأشياء وتقويمه لحوادث المالم. وبما أن جذرها مغروس في فكر الإنسان ، فليس أكيداً أنها تسير نحو ما هو أرقى أو أحسن . يقول ماك ايفر (١): « وما زالت السيارة منذ أن اخترعها الإنسان في تحسن دائم ، وما زالت وسائل النقل تزداد سرعة ومقدرة. فهي أحسن وأرقى بكثير من وسائل النقل الق استخدمها الإغريق » .

ولكن هل نستطيع أن نقول الشيء نفسه عن معاملاتنا مع الناس ؟ ليس لدينا ما نبرهن به على ذلك . فإذا كانت المحركات البخارية اليوم أحسن من حيث المقدرة من المحرك الذي كان أيام مخترع المحرك البخاري ، فليس شرطا أن تكون معاملاتنا مع الناس اليوم أحسن أيضاً . و إن الحضارة لا تسير سيراً منتظما إلى الأمام فهي معرقة للتقهقر كا هي معرقة للتقدم ، وأن

<sup>.</sup> ه . . . ص . ه المصدر السابق ، ص . . ه .

ماضيها لا يضمن لها مستقبلها ».

وإن ماركس ، بالرغم من نتاجه العقلي الكبير ، لم يفرق بين المدنية والحضارة ، واستنتج خطأ من اعتقاده بسأن كل نظام إقتصادي يمثل تقدماً بالنسبة للنظام الذي سبقه ، أن هذا النظام سيجلب معه أيضا أخلاقا أسمى مما كان في ظل النظام الإقتصادي السابق .

ولكن سجلات التاريخ ترفض هذه النظرة رفضاً مطلقاً. ولعل حرص ماركس على أن يصور التاريخ ، على أنه علم دقيق هو الذي دعاه دائماً إلى أن يزعم أن المجتمع تحكمه قوانين صلبة فوق قوة البشر. ولأجل أن يصل إلى هذه الغاية سلك في تفكيره هذا المسلك وفسر كل الحوادث الكبرى على أساس التغير في أسلوب الإنتاج موحياً بذلك أن كل تقدير أساسي القيم ، إنما هو بحر د نتاج ثانوي المظروف الفنية العلمية . وهذا يمني أن نظرة الإنسان تقررها هذه الأمور ولا إرادة له فيها . فإذا كان الأمر كذلك ، فمناه أن الإنسان لن يكون مسؤولاً عن تصرفه ، لأنه وليد الظروف المسادية التي يعيش فيها . ويقضي المنطق بناء على هذا أن كل أنواع الظلم والاستغلال والفجور لها ما يسوغها ، إذ هذا أن كل أنواع الظلم والاستغلال والفجور لها ما يسوغها ، إذ السبب في أن الشرف والصدق والعدل لا مكان لها في كيان السبب في أن الشرف والصدق والعدل لا مكان لها في كيان

فإن هدف الشيوعيين الوحيد هو أن يدحروا أعداءهم. وأما

المشاكل الأخرى جميعاً فهي في نظرهم مجر د مشكلات علمية مبنية على ظروف افتراضية لم تتحقق في عسالم الواقع ، وبذلك تكون خارج الموضوع . « إن وجود طبقة العمال ( بروليتاريا ) في هذه الحياة هو لمجر د أن يقوموا بالثورة . لذا فكل قوتهم وعزمهم واندفاعهم يتصف بالقسوة . وإن حركة العمال متحررة من أساطير الدين ومن الديمقراطية والأخلاق السامية التي هي كلهسا سلسلة صنعتها الطبقة المتوسطة ( البورجوازية ) للسيطرة على الطبقات الفقيرة واستعبادها . وما من شيء يمكن أن ينسب إلى الأخلاق إلا مساعيم هو إزدهار الثورة ونجاحها » (١) .

إن فلسفة الحياة هذه إذ أبعدت كل المشاعر الرقيقة قــــد جعلت الإنسان وحشا حقيقيا، وأعطت الماركسيين مسوغاً لأن يكونوا و غــــير عاطفيين وقساة ومرتابين إلى حد ما في صدق إخلاص الناس وطيبة بواعثهم وأعمالهم ، رغم ما يدعونه (أي الماركسيين) من غرض سام نبيل. وبمــا أن تقدم المجتمع لا يأتي إلا بالتصادم والصراع الدامي ، فإن الخير النهائي لا يمكن أن يكون إلا للفريق المحق في المعركة ، (٢). وكل مــا سوى ذلك بحر"د نظريات وخداع. وهذا قد مكتن الاشتراكيين جميعاً من

Dr. Funk and Goebble (\)

Max Eastman, Stalin' S Russia, P. 166

لقد بحث برتراند رسل آثار هذه الفلسفة في كتابه (الآمال الجديدة للعالم المتغير) ، فقال: «يعتقد ماركس ، كا يعلم كل امرى » إن صراع الطبقات كان دائماً أكبر أسباب التغير الإجتاعي وسيبقى كذلك حتى ينتصر أتباعه ، وبعد ذلك سيعيش الناس سعداء إلى الأبد ، في نهاية القصة الخرافية . إن ماركس نفسه لا يهتم بالعدالة ، ولكن بالاستياء والتذمر . وهو يقول أنه لا مفر من أن يكون الذين حرموا من الامتيازات مستائين ومن أن يكونوا أغلبية ، وبذلك يكون عدم الاستقرار والثورات وحرب الطبقات وما سواهما . وليس الباعث على كل هذه العملية في النظام مبدأ من مبادىء العدالة ، وإنما المبدأ المبدأ الكراهية » (۱) .

وفي النظرة المادية للتاريخ التي جاء بها كارل ماركس ناحية مهمة أخرى . فهو يعتقد أن الأفكار والإنجاهات في عصر ما ، إنما هي نتاج مرحلة التطور الإقتصادي التي تم الحصول إليها . ولذلك فلا قانون مطلقاً ولا أخلاق مطلقة في هذا العالم ، وإنما هذه كلها إنهكاسات لأسلوب الإنتاج . ولكن في هذه النظرة

Bertrand Russel, The New Hopes for the Changing Worla, P. 286 ( )

تناقضًا خطيراً فهو من ناحية لا سي شيئًا أبديــــــا ، ومن ناحية أخرى يعرض فكرته عن التاريخ على أنها مطلقة . وهذا تناقض لم يستطع أحد من تلامذة ماركس أن يزيله. فنحن إذا اعتقدنا أن فلسفة عصر ما ، ناتجة عن السئة المادية له كان هـذا الاعتقاد منطبقاً أيضاً على الماركسية نفسها ، فأفكار ماركس لا يمكن أن تكون صحيحة ومنطبقة على كل الأزمنة لأنها (أي أفكاره) هي أيضاً إنعكاس للمصر الذي عاش فيه . فسلا بد أنه قد كان في ذهنه ظروف المجتمع في ذلك العصر ، وكل ما جاء به ربمــا كان ملائمًا لزمانه ، هو ولا يمكن بعد زمانه ذاك أن يكون صالحًا للمصور التالية . فمع تغير الزمن لا بد" لفلسفته أن تتغير. ولكن ما من ماركسي بريد أن يقبل هسذا . فهم يعتقدون أن نظراته صحيحة في كل الأزمان. أي أنها قيم دائمة للمجتمع الإنساني لا تتغير . وقسد سددت هذه الفلسفة ضربة عنيفة للأخلاق . فقواعد الأخلاق ليست فيرأي الماركسيين أشكالاً من الأفكار تكونها نفس الإنسان عن بعض العوامسل الحقيقية والملموسة في هذا العالم ، وقانوناً للفضائل وتعبيراً عن استجابتها لما تدركه ، وإنماهي عندهم نتاج مرحلة معينة منمراحل التطور الإقتصادي وصل إليها المجتمع . وقيد انحط هذا بالشيوعيين إلى مستوى ( خدم للزمن ) لا أكثر ، يعيشون في هذه الحياة بلا مبدآ .

وعلى أساس هذه النظرية ، فـــــإن التاريخ آخذ في تقدمه الحتمي نحو هدفــه . ولذلك ليس للفرص ولا لعظهاء الرجال أية

يد في سير الحوادث ، فهي سائرة من تلقاء نفسها على خطوط معينة . وليس في وسع حادثة ما ، مها جل شأنها ، ولا شخصية مها كانت عظيمة ، أن تصنع شيئاً . ولكننا نجد أن الأحوال تناقض ذلك .

وقسد أعطى برتراند رسل بعض الأمثلة الممتازة لحوادث وقعت مصادفة وكان لها أثر حاسم ، فقال : « لقد كان مجازفة أن تسمح الحكومة الألمانية بأن يعود لينين إلى روسيا عام ١٩١٧ ولو أن ذلك الوزير المختص قال : « لا » ولم يقل : « نعم » التي قالها فعلا لكان صعباً أن نتصور أن الثورة الروسية كانت ستخذ السبيل التي اتخذتها . ثم لو أن (جنوا) لم تسلم (كورسيكا) إلى فرنسا عام ١٩٦٨ لكان نابليون الذي ولد فيها في السنة التالية إيطاليا ، ولما كانت له في فرنسا حياة سياسية . والآن لا يكاد يستطيع امرؤ أن يدعي إدعاء جدياً بأن تاريخ فرنسا كان سيكون نفسه بلا نابليون » .

هدنه الأمثلة عكن أن تتضاعف أضعافاً كثيرة جداً. ففي التاريخ ساعات حاسمة لو اتخذت فيها الخطوة الصحيحة في الوقت الملائم لنجت أمة كاملة من الدمار. ومن ناحية أخرى سبب ضياع لمخطة واحدة خسارة للمجتمع كله لا حصر لها. إن وقوف أبي بكر واتخاذه قراراً سريماً بقتال الذين رفضوا أن يدفعوا الزكاة ، أنقذ الاسلام من الدمار. ولو تأخر القرار لحظة لكان معنى ذلك انتحاراً لكيان الجماعة المسلمة كله. وأن تحذيره

الحكيم الذي أطلقه بصوت مخيف، وقال فيه أنه لن يسمح لأحد أن يمتنع عن دفع شيء من زكاته حتى ولوكان عقال بمير ، هذا التحذير قد كبت كل القوى التي خرجت لتقضي على الاسلام. إن 'بعد نظره وصفاء ذهنه مع ما عنده من سرعة العزم والتصميم قد تضافرت كلها للقضاء على الشر" في مهده ، ذلك الشر الذي لو لم 'يقض عليه بقوة في ذلك الوقت لنسف استقرار المالم الاسلامي كله. كذلك غرس ذكاء لينين ودهاؤه الاشتراكية في روسيا ، البلا الزراعي . إن الفكرة الماركسية تقضي بأن تحدت الثورة الاشتراكية في الأقطار التي يكون فيها الانتاج سائراً علىمقياس واسع بمساعدة الآلات، إذ أن الصراع الطبقي يكون في ذروته في هذه البلاد. ولكننا نجد أنه بقيادة لينين الحكيمة القديرة حصلت هذه الثورة في بلاد متأخرة صناعياً ، هي روسيا . إذ أن لينبن حين وجد السم ينخر في كيان روسيا السياسي استغل الموقف، وقلب نظام روسيا اشتراكياً . ولدينا مئات الأمثال التي تذيد هذه النقطة . إن الماركسيين يريدون أن يعطوا القوة إلى تركيب منهجهم في التفكير فينسبون ظهور عظياء الرجال في الفترات الحرجة من تاريخ البشرية إلى الضرورة. فيزعم إنجلز أن الرجل العظيم ﴿ لم يأت مصادفة ، حتى أنه لو لم يكن ، لجأ بدلاً منه رجل آخر ، .

ولكن لم يأت أحد لينقذ بلاد الاغريق أو روما في العصور السالفة ، ولا جاء أحد لينقذ اسبانيا عام ١٩١٣. إن القول بأنه

وبرى هيفل الرأي نفسه عن دور الإنسان مسم اختلاف بسيط ، فهو يرى أن ما يحصل في هذا المالم من تغير ما هو إلا مجرّد إنعكاس حتمي لتقدم ( روح العالم ) ونموّها . وهي تسير نحو تحقيق وجودها الذي يتم بالصراع بين النظريات المتناقضة . لذا فليس في وسع فرد أو جماعــة من الناس أن ينفذوا إرادتهم نفسها . فهم جميعاً الآلات المتواضعة التي ينفذ بها تصميم ( روح العالم). وقسد يشعر العظهاء بالزهو إذ يسمون أنفسهم أبطالاً ؟ ولكنهم ليسوا إلا دمى تحركها (روح العالم). وشبيه بذلك ما يراه ماركس فهو يعتبر الإنسان نتاجاً أنتجته وسائل الإنتاج. فيجال فكره يتلون بلون واحد هو لون المـادة المحيطة به ، فهو لا يستطيع أن يختار لنفسه أي طريق بصورة مستقلة ، بل عليه آن يدور في تيار الزمن الذي لا يجري إلا وفق ما تمليه الضرورة الإقتصادية ، لذا فليس الإنسان على هذا الأساس إلا كائنا آليا لا إرادة له. أما الإسلام فإنه يرفض رفضاً قاطعاً أن يوضع الإنسان هذا الموضع الذي يحرم فيه من الكرامة الإنسانية كلها ومن حرية الاختيار. وهــــذا أهم اختلاف بين النظرة الغربية والنظرة الإسلامية للتاريخ في كلمات موجزة.

إن الإسلام منذ الوهلة الأولى لا يعتبر الإنسان مجرّد كائن حي ، بل يضعه في منزلة رفيعة هي خلافة الله على الأرض .

( وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة . قسالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبت بحمدك ونقد س لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون ) . سورة البقرة (٣٠)

( وإذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من صلصال من حماً مسنون ، فـــــإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ) .

هذا يفارق الإسلام الغرب مفارقة تامة ، فعلماء الفرب يعدون الإنسان حيواناً عاقلاً ، أما القرآن فيرفعه إلى المكانة السامية التي هي خلافة الله على الأرض . وبفضل هذا المركز الذي وضع الله فيه الانسان بين مخلوقاته صار له الحق في أن يستخدم كل شيء في هذا العالم استخداماً كاملا .

( ألم تر ً أن الله سيختر لكم ما في الأرض ) . سورة الحج (٦٥)

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريجون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذي أنزل منالسهاء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون،

الفاضل لا ينطبق إلا على الأعمال التي يكون للمرء فيها حرية اختيار ، ولا فضيلة في فعل يقسر المرء عليه قسراً. وإننا لا نقد ر فعل الخير حين يفعله المرء إلا لأننا نشعر بأنه كان يستطيع أن يختار فعل نقيض ذلك ، لو أراد . ولكنه بمحض اختياره وإرادته الحرة اتبع الطريق القويمة . يقول الله عز وجل في القرآن الكريم : (إنا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نيتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إمسا شاكراً وإما كفوراً) .

سورة الانسان (۲ - ۳)

ويؤكد الدكتور إقبال: « إن هذا الهبوط لا يعني فساداً خلقياً. بل هو انتقال الانسان من الوعي البسيط إلى الوميض الأول من الاحساس بالذات وهو أشبه بالاستيقاظ من حمل طبيعي استيقاظاً مصحوباً بالاحساس بهزة منبعثة عن سبب ذاتي في كيانه نفسه . ثم إن القرآن لا يعمد الأرض مكانا للمذاب سجن فيه البشر ، الآثمون في أصل تكوينهم ، بسبب خطيئة أصلية .

إن المعصية الأولى التي ارتكبها الانسان كانت أيضا أول عمل استخدم فيه حرية الاختيار . وهذا هو السبب في ما قص

علينا القرآن من قصة آدم ، وكيف أن الله قد غفر له خطيئته الأولى . وإن عمل الصالحات الآن ليس عملاً يكره المرء عليه ، وإنما هو خضوع المرء للمثل الخلقية العليا بمحض اختياره ورغبة في التعاون بين نفوس حرّة . فالمخلوق الذي تخضع حركاته خضوعاً تاماً للسيطرة خضوع الآلة لا يمكن أن ينتج الخير . لذا فالحرية شرط في الخير . وإن الساح بظهور ذات لها حدود تستطيع أن تختار بعد أن تنظر في قيمة كل سبيل من سبل العمل التي أمامها أمر ينطوي على مجازفة كبيرة ، ذلك أن الحرية في اختيار الخير تتضمن أيضاً الحرية في اختيار نقيضه . الحرية في اختيار نقيضه . وإن أقدام الله سبحانه على هذا يدل على ثقته الكبرى بالانسان وما على الانسان الآن إلا أن يبرهن على أنه أهل لهذه الثقة على المنار ال

إذن فهذه الحياة القصيرة نوع من الثقة المقدسة وضعها الله في الإنسان أفراداً أو جماعات ، ليبرهن على أنسه أمين في استعمال هذه الثقة . ولئن رفعت هسنده الثقة منزلة الإنسان إلى أعلى الدرجات بين المخلوقات ، فقد وضعت على كاهله في الوقت نفسه ما يلازم هسنده المنزلة من أعظم المخاطر وأكثرها تحدياً . ولذا أضحى واضحاً أن هسنده الحياة اختبار وامتحان للناس يبين كل منهم فيه قيمته . يقول الله تعالى في القرآن الكريم : (وهو

<sup>(</sup>١) Muhammad Iqbal (١) المصدر السابق ، ص ه ٨ . وتجدد نصا مشابها في ص ١٩٠ – ١٠٠ من الطبعة العربية المشار إليها آنفا . (المترجم)

ثم إن الله سبحانه وتعالى الذي أحكم نسيج هـذه الحياة لا يرمي مكوكه إلى الخلف على نول الزمن دون بصيرة. إنه حكيم في خططه وعادل في ما يقرر ، ولا ينفك يراقب أعمال الناس.

( ولا تجسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنمسا يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ) .

سورة ابراهيم (٤٢)

والحق أن يد الله تتحرك حركة دائمة إلى الأمام وإلى الخلف بمقتضى قانون فتخرج إلى النور الأمم الجديدة وتطمس الأخرى في الظلمات ولارتقاء الأمم وانهيارها قوانين ولم يترك شيء ليد مشيئة عمياء . إن الأمم التي ترتفع فتبلغ أوج التقدم والرفاه الاقتصادي وأغا ترتفع بعد أن تنمي في أنفسها صفات خاصة والما الأمم الأخرى التي زحزحت عن منزلتها المرموقة إلى مكان مغمور وفإنما أصابت هذا الحظ لأن فيها مواضع ضعف نخرت بنيان مجتمعها وقوى الحياة فيه . ومن ينظر نظرة سطحية إلى هذا الانهيار يرى أنه نتج عن هجوم خارجي أو عن خيانة بعض رؤسائها . أما الحقيقة فهي أن التدهور نتيجة فساد بطيء وانحطاط لا يشعر بها المرء وهما فساد وانحطاط يتجليان في كل جوانب حياة الأمة وبنخران قوتها . ولا ربب في أن نهاية هذه الأمم قد تؤخر بعض الوقت ولكنها لن تصرف عنها قط ولا بد أن تحل بها .

( سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا). سورة الأحزاب (٦٢)

( ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميح عليم ) .

سورة الأنفال (٣٥)

وقبل أن نبحث موضوع ارتقاء الأمم وانهيارها والأسباب المؤدية إلى ذلك ، نرى أن ننظر في بعض آيات القرآن التي تبين بنظرته إلى الإنسان فذلك في ما نرى أمر مهم .

١ - إن الإسلام لا يعتقد بالخطيئة الأولى أو الخطيئة الأصلية
 وهو بذلك يخالف المسيحية وغيرها من الأديان والآراء الفلسفية.

يقول الدكتور إقبال: ﴿ إِنْ التوراة تلمن الأرض بسبب معصية آدم ﴾ أمسا القرآن فيبين أن الأرض دار سكن للإنسان ومصدر ربح له ﴾ وعليه أن يشكر الله على هذه الدار التي أنهم عليه بها .

( ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ) .

سورة الاعراف (١٠)

كذلك مسا من سبب يدعو إلى أن نفرض أن كلمة ( الجنة ) بالمعنى الذي تستعمل به هنا ، وهو الحديقة ، تعني فردوس الدار

عليهم وحدهم. فإن الله وملائكته لن يسحبوا البشر إلى الأمام، ثم إن الأخلاق تتضمن تأديب النفس وتعويدها النظام والطاعة. كا تتضمن السيطرة على الشهوات وتنظيم الإرادة في السمي وراء مثل أعلى. وهذا يتطلب جهوداً متجددة دائماً في مجال الأخلاق يقوم بها الأفراد أو الجاعات. وما من نجاح خالد إلى الأبد ولا تقدم باق دائم. فقد يبلغ الفرد أو الجماعة بالجهود المتواصلة والمثابرة النابعة من عزيمة مستوى خلقياً معيناً ، فإذا قل الجهد المبذول انحط عنه. لذا فالأخلاق، سواء كانت فردية أو جماعية ، المبذول انحط عنه. لذا فالأخلاق، سواء كانت فردية أو جماعية ، عكن في أي وقت أن تنحط وتنتكس فتؤدي إلى خسران كل ما أمكن بلوغه في السنوات السابقة .

( لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ) . سورة التين (٤ – ٥)

لذا فالأفراد والأمم قـــد يرتقون أو ينحطون حسب ما يتجهون إليه .

٣ – وثالثاً ، يصرح القرآن بوضوح أن قوانين الله لا يمكن تغييرها ، فهي ليست من صنع ظروف المناخ في الدولة التي تعيش فيها الأمة ، ولا هي ناتجة عن البيئة الاقتصادية ووسائل الانتاج. وهي لا تختلف من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان . وكل أمة توجه حياتها وفقاً لهــذه القوانين تحصل من الفائدة على ما تحصل

عليه أية أمة أخرى سلكت هذه السبيل نفسها . فقد أعلن القرآن جازما :

د فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » . سورة فاطر (٤٣)

إن هـذا الطابع العالمي القوانين الخلقية يرجع إلى أن طبيعة الإنسان لا تتغير . فالحوافز الإنسانية لم تزل نفسها اليوم كا كانت من فجر الحضارة الإنسانية ، فالغرائز التي هي محور عمل الإنسان لم تزل باقية كا كانت بالرغم من أن مجال النشاط الإنساني قد اتسع وصفات الايثار والشرف والصدق والشجاعة المستحبة تنال من الاحترام اليوم مـا كانت تناله منذ القدم . وإن بقاء طبيعة الإنسان ثابتة لا تتغير هو الذي حدا بالحكيم العربي الشهير ابن خلدون إلى أن يقول : « إن الماء الذي يجري في الماضي هو الذي يجري في الماضي هو دراسة الذي يجري في الماضي هو الذي يجري في الماضي هو الذي يجري في الماضي هو دراسة الماضر يلقي ضوءاً على التاريخ الذي هو دراسة الماضي ، تماماً كا الاجتاع عده تخضع لقوانين لها من الثبات ما يكفي لأن تسبب حوادث اجتاعية تتبع أغاطاً وأساليب منتظمة واضحة ، رغم

<sup>(</sup>١) هذا النص مترجم عن الفقرة الانكليزية التي ذكرها المؤلف ولم يذكر Charles Issawi, An Arab : مرجمها من ابن خلدون ، وإنمسا اقتبسه من Philosophy of History, P. 7.

أنها ليست مطلقة كالقوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية .

(٤) لذا فحوادث الماضي فيها عبرة للناس ، إذ لا بد " لأهل كل عصر من أن يواجهوا النوع ذات من التعقيدات التي واجهها أسلافهم ، فمواضع الخطر في طريق الأمة تكاد تكون نفسها في الماضي والحاضر . إن التاريخ ، كما يقول القرآن الكريم ، ليس عر د قصص يروى عن الأيام الغابرة ، وإنما هو تحذير من المهاوي الواقعة في طريقنا . إن سجل التاريخ ما هو إلا الفنار الذي ينبىء الملاحين الجدد الذين يمخرون عباب الحياة عن الصخور المهلكة التي قد تكون خافية تحت سطح بحر الوجود الإنساني الذي لا يدرك غوره : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها » .

## سورة الروم (۹)

وهـــذا يبين أن الماضي بكل ما فيه من نور مشرق وآلام مبرحة يتكرر متخذاً ثوب المستقبل . إن التاريخ ، كا قلنا ، تحكه قوانين لا يقتصر تأثيرها على الماضي ، بل تؤثر كذلك حتماً في كل ظرف مشابه يطرأ في المستة م . لذا فإن في حركة جميع القوى التي تنسج تاريخ البشرية عنصر ، واضحاً هو عنصر الإعادة والتكرار . فالسراء والضراء تصيبان كل أمة ، وما في العالم من أمة لم تمسك بعصا السلطة . فالذين لا تطغيهم الأفراح والذين لا تقعدهم السعادة اتزان عقولهم ، والذين لا يسمحون لأنفسهم بأن

ينهاروا تحت وطأة المصائب هم الذين يسمح لهم قانون الحياة بالبقاء والنمو . أما الذين لا يستطيعون التاسك أمام الشهوات وفي وجه ضربات القدر ، فاولئك الذين يجرفون خارج نطاق الوجود الفعال : « أن يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الآيام نداولها بدين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ،

سورة آل عمران (١٤٠)

« إن مع العسر يسرا »

سورة الشرح

« تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي » .

سورة آل عمران (۲۷)

ان ظاهرة اتباع النهار لليسل واتباع الليل للنهار لا ينحصر صدقها في هذه الكرة الأرضية ، بل يتعداه إلى عسالم الحياة . وكذلك فإن نفخ الحياة في الميت ، وأماتة الحي لا يقتصران على الأفراد ، فهذا الأمر نفسه يظهر عند الامم أيضاً. فكلمة (نهار) تمثل السمادة والقوة ، و (ليل) ترمز إلى فقدان القوة والأفول والانهيار . وإن القرآن حين يأتي بهذا التشبيه ، إنما ينبته إلى أن الذين تلفهم ظلمات المصائب والشقاء لمخرجون من تحت أجنحة الأشباح التي تغطيهم إلى نور السمادة والمجسد . وكذلك تموت الأهم ثم تولد مرة أخرى ، ولكن يجب أن لا يغيب عن البسال

إن هذه النظرة عن طبيعة الإعادة التي في التاريخ تختلف اختلافا جوهريا عن القانون المظلم الذي جاء به نيتشه وهو قانون الإعادة الأبدية الذي بمقتضاه و تأتي جميع الأشياء مرة أخرى ، وأخرى بصورة متشابهة : القوي والضعيف ، الخسير والشر ، الأفراح والآلام ، النجاح والاخفاق ، بكل تفاصيلها الدقيقة حتى أن كل رجل يعيش في المستقبل مرات لا نهاية لعددها كما قسد فعل في الماضي ، وهي ليست حياة جديدة ، ولا حياة أحسن ، ولا حياة مشابهة ، ولكن الحياة نفسها » . وما من شيء أبغض إلى روح الإسلام من هسذا . أن نيتشه يعتقد أن نظام الحوادث في العالم البيل إلى تغييره ، وإن كلمة (إعادة) ذاتها تعني الشات .

يقول دكتور إقبال: « إن الماضي بلا شك يبقى ويعمل في الحاضر ، ولكن هذا العمل الذي يعمله الماضي في الحاضر ليس كل ما في الشعور ، فإن عنصر القصد والفرض يكشف نوعاً من النظر البعيد في الإدراك ، وإنني أرى أنه ما من شيء أكثر بعداً عن القرآن من فكرة أن العالم تجسيد مادي لخطة استقرت في الذهن من قبل – وأنه نتاج كامل الآن، وكان قد غادر يد صانعه منذ عصور طويلة ، وهو الآن في الفضاء كتلة مادية ميتة لا يفعل الزمن فيها شيئاً ، لذا فهي لا شيء . إن هـنا العالم في الحقيقة ينمو ، وأنه قابل للتوسع والامتداد إلى غير ما حد ، إذ أنه ربما

يكن في أعماق كيانه حلم المولد الجديد ، (١) .

أن اليد الخفية التي تنسج على نول الزمن تأتي إلى الوجود ببساط منسوج يظهر فيه بوضوح تصميم نام لا مجرد إعادة لا نهاية لحما للنموذج نفسه . لقد أعطى بروفيسور توينبي مثالاً يوضح ايضاحاً يدعو إلى الإعجاب طبيعة التغير إذ يقول و إن حركة الدولاب دون ريب حركة إعادة وتكرار بالنسبة إلى جزع الدولاب (٢) نفسه . ولكن الدولاب نفسه لم يصنع ويركب حول جزعه إلا لأجل أن تستطيع العربة أن تتحرك بواسطته ، وهو ليس من العربة غير جزء . أما إن العربة التي هي علة وجود هذا الدولاب لا تستطيع أن تتحرك إلا بفضل حركة الدولاب الدائرية حول جزعه ، فهمذا لا يرغم العربة نفسها على أن تسير الدائرية حول جزعه ، فهمنذا لا يرغم العربة نفسها على أن تسير كدوارة الأطفال في طريق دائري » (٣) لنضع بدل الجزع طبيعة الإنسانية ومصيرها المتكرر المعاد ، فالبشرية دون ريب تسير قدما ولكن دولاب نشاطها لا يدور إلا حول جزع طبيعتها. وعندما ولكن دولاب نشاطها لا يدور إلا حول جزع طبيعتها. وعندما تندفع العربة إلى الأمام ، فإن الجزع نادراً ما يتحرك إلى الأمام

<sup>(</sup>۱) Muhammad Iqbal (۱) المصدر السابق، ص ه ه . راجع ص ١٦٦٢ من الطبعة العربية .

<sup>(</sup>٢) الجزع هو الحور الذي يدرر عليه الدولاب.

Arnold Toynbee, A Study of Histery edited by D. C. (7) Somervell, P. 453

أيضاً. إن الثورات التي نراها في الأمم تشبه ثورات الأرض . فالكرة الأرضية تمر بتغيرات موسمية خلال السنة ، ولكنها لا تفادر مدارها أبداً. انها تتحرك في الخطوط المرسومة لها . لذا فغي كل يوم جدة ، ولكنها صورة للماضي . وهكذا يتضح أن عسدم الاستقرار الفكري الذي يعاني الإنسان الحديث منه ، والمشكلات العديدة التي يواجهها اليوم ليست جديدة ، وإنما هي قصص قديمة لمصائب تكررت مراراً كثيرة مع تنويع بسيط . قصص قديمة لمصائب تكررت مراراً كثيرة مع تنويع بسيط . لقد بينا منقبل إن ما أدعاه هيغل وماركس من أن الموحد خير دائماً من الفرضية ونقيضها لأنه يحوي في ذاته العناصر الفعالة منها إنا هو ادعاء لا أساس له مطلقاً. وكذلك بينا أنه لا أصل للرأي القائل بأن التوفيق بين الفرضية ونقيضها ينتج عنه نظام جديد له خواص كل منها كما أن التاريخ لا يدعم هسذا الرأي . ففي كثير من الأحوال حين يولد النقيض من الفرضية يحطمها تماما ، وحينثذ يتكون ضدها رد قعل فينعدمان تماماً وتقوم بدلاً منها حركة جديدة :

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، واكن الله ذو فضل على العالمين ،

سورة البقرة (۲۵۱)

« الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً – ولينصرن الله من ينصره

إن الله لقوي عزيز ، .

سورة الحج (٠٤)

هـــذه الآيات تبين بجلاء أن الله لا يعطي أية أمة السيطرة والغلبة الداغتين. فكل جماعة من الناس تتسلط مدة من الزمن ، وبعد ما تمر هذه المدة تزول من الوجود ، وتقوم فوق رفاتها أمة أخرى . وإن الله ليس له حقد شخصي على أية طبقة من الناس ، وإنا هو سوء عملهم الذي يجلب عليهم الدمار فتولد على أنقاضهم طبقة أخرى .

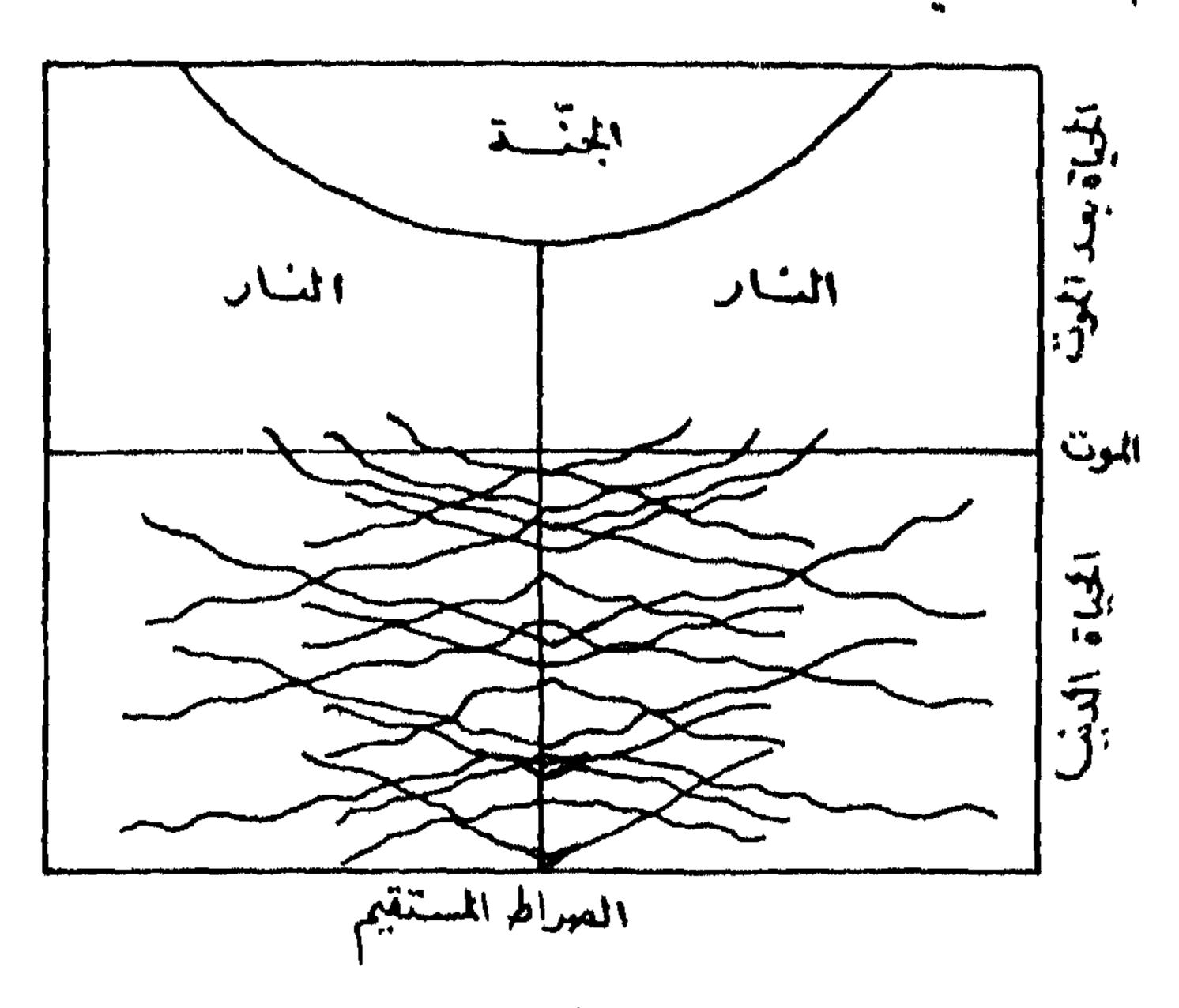
والسؤال الذي يبرز بصورة طبيعية هو: ما السبب الأساسي لهذا التغيير ؟ والقرآن يجيب بأن التغير قد سببه شيء في الداخل لا الحارج :

ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .
 سورة الرعد (١١)

إنها الدفعة الداخلية للحياة ، الروح التي في داخله ، هي التي تحدث التغير في حياة الفرد والأمم ، والتغير الصائب في الفرد والجمع لا يمكن ضمانه إلا حين تتغير النفس. إن الفرد عالم قائم بذاته ، فإن فيه صفات لا حصر لها في الرأس والقلب، وأن فيه أهواء متضاربة ، وأذواقاً وميولاً مختلفة ، وحين يتصل البشر ببعضهم يسبرز الكثير من الأمور المعقدة التي تزداد مع الزمن تعقداً .

وأنه ليصعب ، بـل يستحيل على الأفراد مهما أوتوا من العلم والحــــبرة أن يسبروا غور كل جانب من جوانب حياة الإنسان بفكر متزن . وهم لا يستطيعون رغم ما أوتوا من عظيم الحكة أن يضعوا لأنفسهم منهجا مرتبا محبوكا تنال فيــه كل ناحية من نواحي الحياة الإنسانية العدل المكامل .

وهكذا يتضح أن الافراد أو الجماعهات المستقلة من الناس الذين ليست لهم نظرة فيها من البعد مسا يكفي لان تبصر من الحياة الإنسانية ، لا يستطيعون أن يرسموا لحيساة الناس منهاجاً متوازناً يفي بمتطلبات كل ناحية من نواحيها. إن طبيعة الإنسان أشد تعقيداً من أن يستطيع عقدل الإنسان أن يحللها . فالإنسان لا ينظر إلا إلى بضع من حاجات البشر ويجهل الباقي . وبهذا يصبب جوانب الإنسان المهملة حيف عظيم. وهسذا يحطم استقرار الحيساة فيتحرك رقاصها إلى أقصى الطرف الآخر. ثم ياتي بعد ذلك رد فعل مرة أخرى ، فاذا حاجات الحياة التي كانت قد حرمت من نصيبها الذي تستحقه تستأثر وحدها بكل اهتام البشر وتنال درجة من الاهمية لا تستحقها. وتتكرر نفس عملية ردّ الفعل. وبهدا تخيب الإنسانية في مسعاها لكي تجد الحد الوسط اللازم لتقدمها. فهي تتأرجح بين النهايتين المتطرفتين وبين هــذين يوجد (الصراط المستقيم) الذي أوضحه الله تعالى . وهذا وحده هو الذي يؤدي بالإنسانية إلى طريق الفلاح في هذه الدنيا وفي الآخرة . وكل السبل الاخرى تؤدي بها إلى الضلالة والهلاك. لقد قاد المفكرين الحديثين جهلهم المحض إلى أن يعتقدوا بيان الاسلوب الديالكتيكي هو الطريق الطبيعي الذي تتقدم به الإنسانية الآن . إن الصراع بين الفرضية ونقيضها لا يؤدي إلى تقدم ، وإنما هو ضربة القدر القاصمة التي أصابت البشر جزاء أعمالهم السيئة . فلقد مرت قافلة البشر مراراً بالصراط المستقيم ولكنها لم تتخذه لها سبيلا . ويمكننا أن نشرح العملية كلها المخطط التالى ؛



يفهم المرء مما جاء به القرآن أن الوحدة الواضحة في الدراسة التاريخية ليست الشعب ولا البلاد ، وإنما جماعة معينة من البشر

تسمى (ملة). فغير المسلمين كافة ينتمون إلى ملة واحدة دون النظر إلى زمان أو مكان. وكذلك مسلمو كل العصور وكل البلدان يكونون مجموعة اجتاعية واحدة. إن تاريخ الإسلام هو تاريخ الصراع بين قوتين في العالم، هما الشر والخير، وهو الصراع الذي بدأ مع مولد أول رجل أغواه الشيطان. وهذا الصراع يرمي إلى تقوية شخصية المسلمين لكي يستطيعوا أن يستخدموا الصفة التي وهبها الله إيام لكي يزيدوا من سرعة نشاطهم الخلاق وفقاً لأوامر الإسلام. لذا فإن ملة الإسلام والأمم غير المسلمة قوتان متضادتان في هذا العالم كانتا دائماً في خصام ونزاع. وإن على ملة الإسلام أن تعتبر نفسها مسؤولة عن كل ما يحدث من حولها، وأن تجاهد من أجل إقامة الحق وإزهاق الباطل في كل حين، وفي كل سبيل من سبل الحياة الإنسانية. فالحق أن الكفر حدث أن و من نشاط عدائه للإسلام لم يكن السبب استحسانا لم يكن قط ولن يمكن أن يكون يوماً ما صديقاً للإسلام. وكلما حدث أن و من نشاط عدائه للإسلام لم يكن السبب استحسانا لما جاء به القرآن، وإنما ضعفاً في حضارة العالم الإسلامي .

وبعد هذا البحث نريد أن نجد الأسباب التي تؤدي بالأمم في هذا العالم إلى طريق المجد ، والأسباب التي تجلب لها الدمار . إن منالصفات ما إذا نمته الأمم في أبنائها نالت السيطرة والسيادة على أراضيها ، وإذا فقدته تردّت إلى الحضيض . فسا من أمة يمكنها أن تزعم أنه ما من أحد يستطيع أن ينزلها من كرسي السلطة والسيادة في بلادها مججة أن هذه البلاد التي تعيش فيها

أرض ورثتها عن أجدادها ، فالله سبحانه لا يقر هـذا الزعم ، بل ينظر إلى هذه الامة التي أتيح لهـا أن تحكم أهي قائمة بالحكم بالحق أم بالجور والظلم . فـإذا كانت طاقات الامة موجهة نحو الخير سمح لها بأن تزداد قوة إلى أقصى حد ، فإنها بذلك تعطي الفرصة لكي تمرض قيمتها الحقيقية ، وبذلك تنفع العالم كله. أما الامم التي ترتكس في السبات ، فإن طاقاتها الحلاقة تفدو عقيمة وتلجا إلى الظلم والطفيان وتنفق موارد الارض التي في قبضتها على إفناء البشر بدلاً من أن تنفقها على إسعادهم ، وهـذه الامم تحرم السلطة والنفوذ ، إذ أن سم الفوضوية القاتــل ينخر في كيانها السياسي ، وفي مدنيتها وحضارتها فتهوي كا يهوي بيت كيانها السياسي ، وفي مدنيتها وحضارتها فتهوي كا يهوي بيت من ورق . ونريد الآن أن نجد الصفات التي إذا رتبتها الامة في أبنائها قادتها إلى خير مصير .

إن من يلقي نظرة على صفحات التاريخ حق ولو كانت نظرة سطحية يقر بأن العقيدة الحفية التي تحملها أية أمة في مثلها الاعلى تقودها إلى طريق المجد، إن هذه العقيدة وحدها هي التي تضفي وحدة على الشكل الملون لحياتها المتعددة الجوانب و تجعلها تستمر بتقدمها. وحين ينهمك الافراد في صخب الدنيا وضوضائها وحين ترقهم الاهواء المتضاربة ، فان المثل الاعلى يجمع بينهم ويوقظ عزائهم ويحفظ قواهم من أن تتبدد . لذا فإن الصفة الاولى ذات

الخطر الاكبر التي لا بد للأمة أن تنميها في نفسها لكي تتقدمهي أن تضم أمامها مثلاً أعلى ثم تشرب نفسها حباً مفرطاً له. أن التطلع إلى بلوغ المثل الاعلى يوقظ في الامة ما فيها من الصفات الكامنة. لذا فإن قادة كل أمة تسير في طريق التقدم يلاحظون بدقة أن لا تكون نظرة اتباعهم إلى المثل الاعلى غير منبعثة من أعياق قلوبهم أو نظرة تردد ، بـــل نظرة ملؤها العزم والجهد المركز ساعية إلى نيله بأسرع ما يمكن . يجب أن ينهمكوا في العمل لهدفهم في الحياة ، وأن لا يدخروا جهداً في أن ينموا في أنفسهم الصفات الخلقية والشخصية التي تؤهلهم لبلوغ هدفهم. إن الهدف هو غاية ما تحتاجه الامة السائرة في طريق التقدم وأنه ألف مطاعها وياؤها. فالامة التي لا هدف لها لا تستطيع أن تحرز تقدماً يعتد به . هذا أمر مهم جداً. لقد كانت العقيدة الراسخة في المثل الاعلى العظيم للإنسان دائمًا صفة قوية محركة ومفجرة للطاقات ، ولم يقتصر نجاحها في الماضي على أن غيرت حياة الإنسان الشخصية كلها، بل نجحت كذلك في تغيير مصير أمم. فإن ما حققه العرب بزعامة النبي الكريم وقيادته الحكيمة القديرة أحـــد الامثلة على ذلك . وإعادة بناء كيان روسيا السوفياتية أخيراً ــ سواء أقر المرء ذلك أم خالفه ــ مثال آخر ط, ذلك فكلاهما يبينان بجلاء كيف اضطرت قوى المارضة الكبرى إلى أن تنحني تحت ضربات هؤلاء بمثلهم الاعلى بعزم وإخلاص. وإن لأبناء كل أمة دائمًا رسالة تشجيع ، إن كانوا

خلصين في اتباع غاية معينة . إن الأمم الميتة ليست ميتة بحكم القضاء أو بالفطرة . وأن الحب الذي يملأ القلب لمثل أعلى يمكن أن يولد طاقة تجعل الأمة تبذل جهداً للوصول إلى هدفها لا تستطيع حتى النجوم في أفلاكها أن تقف في سبيله .

أهم الأعمال الطيبة التي يذكرها القرآن الصدق. فالإنسان كائن إجتاعي ، ولا بد له من أن يقيم علاقات مع أبناء جنسه ، والأفراد لا يمكن أن يرتبط بعضهم مسم بعض ارتباطاً وثيقاً بأواصر الحب إلا حين يكونون في كل أعمالهم صادقين ، وإن الأمم التي تفقد هذه الصفة مقضي عليها بالسقوط، وأما الهيكل الإجتاعي الذي مادة بنائه الصدق فيستطيع أن يقف في وجه أعنف ضربات الزمن .

ذلك هو السبب في أن أنبياء الله كافة أكدوا تأكيداً شديداً على قيمته . وحتى في عالمنا اليوم نجد أن الأمم التي تفوق الأمم الأخرى في التجارة هي الأمم الصادقة في معاملاتها . إن كرامة الفرد أو الأمة تعتمد تماماً على هـذه الصفة . وهي تؤثر تأثيراً بالفا في كل من يتصل بهم الفرد اتصالاً شخصياً. لقد أكد الرسول الكريم تأكيداً شديداً على هـذه الصفة حتى أنه طلب مرة من رجل فيه عدد من الآثام أن يترك أول ما يترك الكذب لأنه أبو الآثام . وقد ضرب هو نفسه أمثلة متعددة للصدق والنزاهة . الآثام . وقد ضرب هو نفسه أمثلة متعددة للصدق والنزاهة . حين أجمعت قريش أمرها على أن تقتله ، وكان على وشك أن يهاجر إلى المدينة ، في هـذه اللحظة الحرجة ، أرسل في طلب يهاجر إلى المدينة ، في هـذه اللحظة الحرجة ، أرسل في طلب

على وأخبره بالأمر الإلهي وسلتمه كل ما كان في حوزته من الودائع لكي يسلمها إلى أصحابها . إن هذا العمل الذي قام بسه الرسول الكريم والذي يدل على النبل والتقوى ترك انطباعاً لا ينمحي في أذهان الأعداء . وقد أسر هذا العمل وحده قلوب أكثر قريش . وإن بما يتفق مع طبيعة الأشياء أن لا يكون هذا السبب أقل خطراً من الأسباب الآخرى التي أدت إلى اندحار المكيين في بدر . وحين جيء بقريش لتقاتله في بدر أحس أكثرهم بالعار لما يقومون به وقالوا : ويلكم أأنكم قد خرجتم لتقاتلوا نفساً كريمة حرص صاحبها على أن يؤدي إليكم أماناتكم الفالية خين كنتم محيطين ببيته تريدون قتله !! . لقد كانوا دون ريب يحملون سيوفهم في وجه النبي وأصحابه ، ولكن قلوبهم لم تكن مع سيوفهم . فكانت هدده الحرب الداخلية أكبر عقبة في طريقهم ، فذابت قلوبهم قبل ما جاؤا إلى القتال بمدة طويلة . وأنه لمن العجيب أن هؤلاء الذين عزموا على تحطيمه هو وصحبه سقطوا صرعى قوته الخلقية .

أن الإخلاص مفتاح الشخصية الطيبة . وإن صرح الخلق الرفيع لا يبني إلا على صخرة الإخلاص . وحين ينعدم الإخلاص فلا بد للكيان الإجتاعي أن ينهار . وكل شيء فيه طعم التصنع إنا هو عين الضعف .

والكرم كذلك مظهر أساسي للعمل الطيب. والتاريخ يشهد بـ أن كرم النبي حتى مع أعدائه فريد في ما سجله التاريخ . كان

عبدالله بن أبي عدوا لدودا للإسلام ، وكان يقضي ليله ونهاره في الكيد للمقيدة ولا ينفك يحرّض أهمل مكة واليهود على سحق المسلمين ، ومع ذلك فحين مات تضرع النبي إلى الله سبحانه أن يغفر له . وكذلك كان موقف النبي مع أهل مكة الذين عمدبوه وأصحابه عذابا شديدا لا يوصف ، فقد عفا عنهم . لقد أثر كرم النبي هذا وعفوه تأثيراً عميقاً في قلوب أعدائه ، فلم يسمهم إلا أن ينضووا تحت راية الإسلام .

والشجاعة درّة أخرى لامعة جداً في شخصية الأمم الناهضة فهذه الأمم لا تسمح للخوف أن يصيبها لحظة واحدة . وقد ضرب الرسول الكريم أمثلة عديدة للشجاعة . فإنه حق حين كانت المكائد تحساك في مكة لقتلة ، كان يتجول ليل نهار غير خائف. وحين وقع جيشه كله في الكين في غزوة أحد بدأ يصيح عالياً في جنوده أن يتغلبوا على اضطرابهم ويستعيدوا نظامهم. . ولم يكن يبالي بالخطر الذي يتهدد حياته هو .

والصفة الأخرى هي (التواصي بالحق). والذي يعنيه هذا أن على الناس أن يكونوا في إقامة العدل عادلين تماماً مع المسلم وغير المسلم الصديق والعدو فجميعهم يجب أن يكونوا متساوين أمام القانون. ولقد أكد القرآن على هذا في مكان آخر بقوله: «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا العيدلوا هو أقرب للتقوى إن صفة إقامة الحق هذه هي الشيء الذي ينقص أمم العالم اليوم نقصاناً فظيماً وهذا النقص هو الآفة التي تنحر

في عروق الحياة في العصر الحديث.

إن دول هذا الزمان لا تنظر إلى شيء غير مصالحها الخاصة المتغيرة ، ولا تفكر هل إن كان كفاحها من أجـــل ضمان تلك المصالح له ما يسوّغه أم لا. وليس لديها من مقياس تفرّق به بين الحق والباطل غير الفائدة المادية. وعلى أساس هذا المقياس يبنون سياستهم الخارجية والداخلية. وواضح أنه حين ينعدم المقياس المجرد للقم المعنوية تكون للجهاعات المختلفة من الناس نظرات متباينة جداً بشأن ما يكون أفضل مصالح الآمة . ولهمذا فإن المصلحة الشخصية وحدها تستطيع أن توجه سلوك الامم. وهذا أمر لا مفر منه ما دام التمييز بين الحق والباطل ، وبين ما يجب أن يعمل وما يجب أن يترك قسد 'ترك لرحمة مصلحة الفرد أو الجماعة ، وبكلمات أخرى قد ترك لأهواء الناس المتقلبة . فاذا أقررنا بأن هذا وضع طبيعي لشؤون البشر ( وبذا نعتبره وضعاً مرغوبًا فيه ) ، فمعنى ذلك أننا أقررنا بسيأن كلتي ( الحق ) و (الباطل) ليس لهما معنى دائم بحد ذاتهما ، وإنما تعين معنيهما نرفض وجود أي واجب خلقي كهذا ــ لأن الواجب الخلقى لا معنى له إن لم يتصوره المرء شيئًا مطلقًا.

لذا فيإن المصلحة الشخصية وحدها يمكن أن تقودنا في تخطيط شؤوننا. والمصلحة الشخصية اصطلاح نسبي و إن ما يكون من مصلحتي ( وهو يكون من مصلحتي ( وهو

اعتبادياً ليس من مصلحتي ) ، وينتج عن هذا إن مصالحنا يجب أن تصطدم في نقطة ما » (١) .

هذا ما يحدث في عالمنا اليوم، وهذا هو أكبر أسباب انحلال نظام العالم الجديد. فالعدل والقسط مفقودان إلى حد بعيد. وإن قوانين العدالة موضوعة لخدمة المصالح القانونية لبعض الأمم. إن نبي الإسلام قد أمر داعًا في وصاياه لقادة الحملات على الأعداء والمغيرين من القبائل والأمم أن ولا يتعرضوا للرجال المعتزلين في الصوامع، ولا يعتدوا على امرأة أو يؤذوا رضيعًا أو مريضًا في فراشه، واقتدى أبو بكر بالنبي فقال: ويا يزيد اجتهد في أن تلزم الحق والعدل في أعمالك، لأن من لم يسلك اجتهد في أن تلزم الحق والعدل في أعمالك، لأن من لم يسلك هذه الجادة لم يلق النجاح الذي يؤمله » (٢).

Muhammad Asad, Arafat, July 1947, p. 265

<sup>(</sup>٢) المستردة العربية لعمر الديراوي المطبوعة في بيروت عام ١٩٦١ مسابها في بعنوا للسلام تاليف سيد أمير علي , وقد ذكر المترجم في حاشية الصحيفة المذكورة : « هذا هو معنى النص الذي يورده ابن هشام , أما النص نفسه مقتبساً عن الخضري سفحة ١٢٤ فهو « اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين، فلا تتعرضوا لهم ولا تبقلوا إمرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء ، وكان ذلك في غزوة مؤتة » .

وكتاب الخضري الذي يشير إليه الاستاذ الديراوي هو « نور اليقين في سيرة سيد المرسلين » تأليف الشيخ محمد الخضري ، الطبعة السادسة عشرة ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

إن هذه الصفة التي هي إقامة الحق دوماً لم تكن أقل تأثيراً في رفع المسلمين إلى قمة المجد. لقد قال الرسول الكريم حق لابنته فاطمة: ولو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطمت يدها ».

والصفة الآخيرة هي الصبر والتحمل .. وهي ليست أقل خطراً من سابقاتها . لقد أظهر التاريخ كله أن الأمم التي تربح في صراع البقاء هي الأمم التي تتصف بالشجاعة والجد والذكاء . والأمم التي من صفاتها الخول والهلع والطيش نصيبها الاندحار . وأنه لخطا كبير أن يقال ما أسعد الامة التي لا تواجه أية مصاعب أن الامم التي تتقدم هي وحدها الامم التي تجرأ على مجابهة الخطوب وتحرز الانتصارات الباهرة حسق لو أعاق سيرها الاخفاق ، أما الذين يقنعون بالركض بروح متخاذلة ، فسلا يستطيعون أن يحرزوا أي تقدم . فهم يعيشون في غبش رمادي يستطيعون أن يحرزوا أي تقدم . فهم يعيشون في غبش رمادي لا يعرف النصر ولا الاندحار . أن الحن والخطوب أهم اختبار وخير محك لإخلاص الناس .

لقد كان لصبر الرسول وأصحابه وتحملهم أثر كبير في نجاح الرسالة . إن مواجهة مصاعب الحيساة ببالغ الشجاعة والجرأة الأعاهي ميدان تدريب تربتى فيه فضائل الثبات الذي هو صفة أساسية من صفات الأمة الحية . وما لم تكن الأمة محاطة منجميع الجوانب بعقبات كثيرة ، وما لم تعترضها الصعاب وينتبها البؤس فإنها لن تستطيع أن تنمي ما فيها من قوى كامنة . إن النباتات التي تبقى في عالمنا هسذا هي النباتات التي تستطيع أن تصمد

للرياح الهوج.

يقول القرآن الكريم مرة أخرى: وأنزل من الساء ماه فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زَبَدَ رابيا ، ومما يوقدون عليه في النار ابتفاء حليه أو متاع زَبَد مثله - كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزَبَد فيذهب بجفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ، .

لقد بين القرآن الكريم بأسلوب الكناية أن الأمم التي في بقائها فائدة للبشر هي وحدها التي تبلغ قمة التقدم والمجد ، لذا فالواضح أن الذين يبقون ويصمدون لأشد ضربات الزمن هم الذين وهبوا المشاعر الرقيقة تجاه بني البشر ، الذين لم يستسلموا لحياة الترف ، ويستطيعون أن يتحملوا كل أنواع المصاعب من أجل إخوانهم البشر ، إن هذا المبدأ شامل تماماً ، حق أنه لينطبق على كل سبل الحياة الإنسانية .

ثم يزيد القرآن الكريم ذلك أيضاحاً بقوله: و'زيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والحنيل المسوّمة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب. قسل: أأنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد. الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار.

الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » . سورة آل عمران (١٤ – ١٧)

هذه الآيات تعدد بعض ما يستغرق انتباه الإنسان بما في هذا العالم ويحرفه عن الصراط السوي . ويتعبير آخر ، تسيطر على أغلب البشر (غرائز التملك) فتغدو الغرائز المبدعة ضعيفة جداً إن لم تختلف تماماً . فحين تسيطر غرائز التملك عند إنسان ما يتجه نشاطه كله وجهة واحدة . هي الحصول على وسائل الراحة المادية ، فلا يستطيع عقله أن يفكر في شيء بما وراء ذلك . وتأتي أيام في أثر أيام وهو مشغول بجمع المال . والخلق عنده والعدل والصدق ليست إلا كلمات جوفاء لا فائدة لها في الحياة العملية ، غير أنها مفيدة إن ساعدته في الحصول على المزيد من المال ، أما إن لم تساعده في هذا فهي غير مفيدة قط . لذا فيان مصير كل قواعد السلوك أن يلقي بها عرض الحائط إن هي وقفت في طريق التقدم المادي . وحب المال يرافقه حب القوة والامتياز . إن مما يرغب فيه الارستقراطيون لا يقتصر على امتلاك المال ، في طريق التقداه إلى إبقاء الآخرين تحت نير الفقر المدقع .

وبهذا يكون المجتمع كله قد انشق فصار طبقتين متميزتين الصحاب المال والذين لا مال لهم . فأصحاب المسال يملكون الكنوز ويسيطرون على شؤون الحكم أيضا والذين لا مال لهم يحرثون الأرض ويعملون في المصانع فلا يكادون ، بالجهد الشديد المستمر ، ينتزعون من موارد هسذا العالم قوتاً يبقيهم أحياء .

ومن هنا تكون الفوضى الخلقية المرعبة التي تولد من العذاب الذي لا يوصف والظلم الذي لا يطاق في المجتمع . أن همذه الظروف تعمل كالمعول في أسس الكيان الإجتماعي، ولا تستطيع الأبهة والبهرج في ظاهر حياة الأمة أن يعوضا عن هذا الضعف، فيصيب الأمة كلها الدمار . لقد سجل القرآن حياة أمم كثيرة غرها متاع الحياة الدنيا ولم تفكر في ما وراء ذلك، وجعلها هذا السعي المندفع وراء المال لا تبالي قط بكل القيم النبيلة لحياة الإنسان ، فغدت وحوشاً بكل معنى هذه الكلمة . ما من شك في أنها قد أحرزت شيئاً من التقدم إلى مرحلة ما .

ولكن حين استنفدت طاقاتهم الخلاقة أمسوا خاملين ، وانقلب كثير من فضائل حضارتهم المادية رذائل. وأقحمت الأمة كلها في انفجار غيير مألوف من الحروب والثورات والفوضوية وسفك الدماء ، وفي فوضى إجتاعية وخلقية

واقتصادية وسياسية وفكرية. يصف القرآن الكريم إحدى هذه الأمم (قوم عاد) فيقول:

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين » .

سورة الشعراء (۱۲۸ - ۱۲۸)

وكانت الأمة التي خلفت عاداً ثمود. وكانت كذلك منغمسة في ملذات الحياة ، وإن استمراضاً سطحياً لحياتها اليومية يكفي لأن يقنع المرء بأن هذه الأمة قدد عميت عن كل ما هو نبيل أو فاضل:

و أتاتركون في ما ها هنا آمنين ، في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين » . سورة الشعراء (١٤٦ – ١٤٩)

« أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون مسا خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون » . سورة الشعراء (١٦٥ – ١٦٦)

ولكن الأحداث سارت في اتجاه خطير ، إذ بدلاً من أن يعملوا بنصيحة رسولهم ويقو موا سلوكهم، و بخوه على نصحه:

د قالوا: لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين » .
 سورة الشمراء (١٦٧)

إن هذا الانحطاط في أخلاق الأمة لا يتجلى في ناحية واحدة من نواحي الحياة ، بـل هو أمر شامل حتى أنه لا ينجو جانب من جوانب الحياة الإنسانية من تأثيره المفسد. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في أثناء مخاطبته أهل مدين :

د أوفوا الكيل ولا تكونوا من الخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناساس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، .

سورة الشعراء (۱۸۱ - ۱۸۲)

وهكذا ، فإن الانحطاط الخلقي بين أبناء الأمم هو الذي يسبب سقوطها . ولا ينقذها ازدهار قوتها العسكرية . وحين يكون انحلال خلقي يصبح النسيج الإجتاعي كله وقوداً يغذي لهب الخراب الذي يبتلع كل شيء . إن هذا القانون ينطبق على العالم كله . كتب مؤلف كتاب (تاريخ المدنية الحديثة ) في أثناء بحثه في أسباب سقوط الامبراطورية الرومانية قائلا : وإن جهرة الموظفين ذوي الامتيازات لم تقم إلا بتقليل عدد دافعي الضرائب وزيادة النفقات ، وازداد عبء الضرائب أكثر وأكثر

على الطبقات التي تقل عنهم غنى . ولم يستطع موظفو البلديات أن يسدوا النقص حتى بالتضحية بأموالهم الخاصة ، فتدهوروا هم أنفسهم ، فزادوا بذلك طبقتي الفقراء وعبيد الأرض . . وتلاشت الوطنية . لقد كان شعار الحكم في روما ضمان السلام ورخاء العالم . وحين ذهب السلام والرخاء لم يبق من سبب للإخلاص لروما أن لقب (روماني) الذي أصبح عاماً منذ زمن (كاراكالا) فقد كرامته وغدا لا يضمن الحاية . لذا لم تنظر الولايات باستياء إلى بجيء سادة جديدين فهم لن يكونوا أقسى عليها من روما نفسها » .

و ونظير كل هذا البؤس كان يتحكم في القصور ترف لم يسمع بمثله ، ومواكب من الخيل والعربات الفارهة والمهرجانات التي لا تنتهي ، وألعاب سركس ومنازلات المصارعة بما كان يشاهده حتى المسيحيون رغم منع الكنيسة . ولقد حوى المجتمع كل نقيض ، مخاصمات المذاهب المسيحية ، والهجمات الأخيرة للفلسفة الوثنية ، والصنعة في شعر شعراء الانحدلال ، والأساقفة ذوي الجد . . وآلاف الموظفين الذين يتملقون الأمير ، والأساقفة يداهنون أو يحذرون . . . لقد كانت الامبراطورية رومانية بالاسم فقط . . . إذ لم يبق من الدين القديم سوى أساطير هجرها حتى الفلاسفة ، (۱) .

Docoudray, History of Modern Civilisation, pp. 36-37.

كتب بروفيسور ستانلي لين بول ، وهو يقرر أسباب سقوط المبراطورية المغول في الهند ، كا نقل ذلك سير و.و. هنتر أن الجنود الأبطال الذين كانوا في أول أيام الامبراطورية ونساءهم اللواتي لم يكن أقل بطولة منهم قد خلف من بعدهم خلف فاسدون من أولاد الاشراف ذوو نشأة رقيقة ناعمة . إن أجداد ( اورا نغزيب ) الذين انقضوا على الهند من الشال كانوا رجالا وجوههم حمر تطفح دما ويلبسون أحذية تغطي الكعبين ، أما الحاشية التي نشأ بينها ( اورا نغزيب ) ، فقد كانوا أشخاصا شاحبين يلبسون الندئي بهر صادفه خلال ثلاثين سنة من الحرب ، أما النبلاء المترفون الذين كانوا حول الشاب ( اورا نغزيب ) فكانوا فكانوا يلبسون ثياباً ذات طيات عديدة من أكثر أنواع الحرير الأبيض يلبسون ثياباً ذات طيات عديدة من أكثر أنواع الحرير الأبيض نعومة ويخرجون للحرب راكبين في هوادج ، (٢) .

وحتى في أيامنا هذه لا نجد سبباً لانهيار فرنسا أعظم شأناً من الكارثة الخلقية. وقد اعترف قادتها بذلك مراراً في الصحافة وفي الخطب العامة.

هذه الحقائق التاريخية صارخة جداً لا يستطيع أن ينكرها

<sup>(</sup>١) جمع نقبة ، وهي ثوب كالازار يشد كا تشد السراويل. (المترجم)

Stanley Lane - Poole, Mediaeval India, p. 413. (Y)

باحث نزيه . وهي تضع في الختام هذه الحقيقة : إن الفساد الخلقي في الأمة هو الذي يسبب انهيارها . هذا عامل عظيم الشان . . وهو أصل الأسباب ومنه تتفرع كل الاسباب الاخرى .

يقول القرآن الكريم بكلمات صريحة قاطعة :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

سورة الاسراء (١٦)

## 道道

أوضحنا في الصحائف السابقة الزوايا المختلفة التي درست منها ضروب النشاط الإنساني التي تحصل في المجموعات الإجهاعية و حللت ثم است خلصت منها نتائج وضعت في شكل قوانين اجهاعية عامة . وقد قلنا أن الجهاعات الإنسانية لا تخبط في أعهالما خبط عشواء ، بل تسلك سبيلا واضحة وتيمم شطر غاية معينة ، وإن لما تقوم به من أعهال في حياتها ، مهما بلغت هذه الأعهال من السعة والتنوع ، غرضاً ذا معنى .

ويرى شپينغار في المجتمع أو الحضارة كائنا حيا يحيا حياة واحدة فقط ، وأن حياتها هذه مثل حياة الكائن الحي ، لها طفولة وباوغ وهرم ثم موت لا مفر منه ، وأنها مثل الكائن الحي ، إذا ماتا فليس إلى أحيائها من سبيل .

إن عملية النمو والانحلال الطبيعي هذه التي يمكنأن نسميها بحق النظرية العضوية تجمل حياة الإنسان قاتمة لا أمل وراءها . وهي تعني أن القوة التي بها تقوم حياة كل حضارة ومجتمع قوة محدودة ، وأنها تستنفد لا محالة بمضي الزمن ، ولا أمل في إعادة الحياة إلى الحضارة والمجتمع بعد أن يكونا قد ازدهرا يوماً ما ثم عراهما الانحلال .

إن الخطأ في تفكير شهينغلر أنسه يرى في الحضارة والمجتمع كاثناً حيساً فقط ، ومن التحليل الأحيائي يستنتج أن كل مجتمع إنما يحيا حياة واحدة فقط ، ثم يموت موتاً لا رجعة بعده .

إن الحضارة أو المجتمع ليس كائنا حيا بالمعنى الذي يستخدم به هذا اللفظ في علم الأحياء ولذلك لا يستطيع قانون أحيائي أن يفستر نموه وانحلاله تفسيراً وافياً. لقد أظهر باحثو كاروبر وزوروكين (۱) ، بما لا يقبل الشك أن « نظماً حضارية أو اجتماعية أو مدنيات عظيمة كثيرة ولدت ثم ماتت ثم ولدت ثم ماتت كثيرة وأنها ارتقت اجتماعياً وفكرياً وسياسياً ثم الخطت مراراً كثيرة في حياتها التي لم يكد يكون لطولها حسد ، ولم تقتصر على ولادة واحدة وموت واحد ، ولا على حقبة واحدة للازدهار ثم حقبة واحدة للاؤول » .

ثم أن ظهور حضارة جديدة أو جماعــة اجتماعية جديدة في التاريخ لا يعني ميلاد وحدة كامــلة مثل الكائن الحي ، ولا يعني

The researchers of Karober and Sorokin (1)

موتها إنحسلالاً أو فناء تاماً. إن الحضارة والجماعات الاجتماعية تشبه مياه موجات مختلفة إذ تختلط ، فهي لذلك لا تولد قطكا يولد الكائن الحي ولا تموت كا يموت ، وإنما تنبع من عيون وأنهار حضارية مختلفة ، وتتماظم أحياناً حين تأتيها تيارات من المدنيات الأخرى ، وتجف أحياناً حين تقل الطاقة المبدعة ، ولكنها تنبثق مرة أخرى في صورة حركة قوية ذات تعبير حضاري . إنها قد تم بدورات عديدة من سعد ونحس ، ولكنها لن تمحى من الوجود قط .

أن الحضارات والمجتمعات تعيش بأرواحها الخالدة التي لا تقوت . ولكن شهينغلر تجاهل هذا الأمر وأقام صرح نظريته على فرض مفلوط هو أن الشكل الظاهري للمجتمع ، والحضارة هو الذي يمثل حياتها ، وانحال شكله هو نهايته المقدرة . بيد أن الأمر على خلاف ذلك . فالأشكال الاجتاعية والحضارية إنما هي التعبيرات المرئية عن النظرات المختلفة للحياة الاجتاعية ، وهذه باقية إلى الأبد . نعم انها تظهر أحياناً وتتوارى أحياناً أخرى، والكنها لا تمحى من الوجود .

مات الرومان والإغريق وتهدم ما شادوه في المجتمع وفي عجال السياسة ، ولكن ما آمنوا به من قيم مادية في الحياة ماثل أمامنا قد 'بعث في حياة أوروبا الاجتماعية الحديثة بعثاً تاماً . ومن هذا يتبين أن نظرة شپينغلر ضيقة ومرتبطة بالأرض .

ولقد وستع آرنولد توينبي قاعدة التاريخ الفلسفية بأن نظر

إلى المدنيات على أنها وحدات التاريخ الحقيقية ، ولم ينظر إليها النظرة التقليدية التي تقتصر على سيرة مجتمع أو أمة ما. وحاول أن يؤكد على ما للإنسان من ابداع ، غير أن رجوعه المتكرر إلى نغمة و التحدي والرد ، التي تشعرنا بوجودها في مجال العمل كله ليست سوى و محاولة لصب حديد قانون الأجل المقدر في مهجع المعتقدات التي عراها البلى، على حد تعبير فيلسوف كبير.

أما هيفل ، ففلسفة التاريخ عنده جزء من فلسفة ( الروح الطلقة) ، والمشكلة التي تواجه من يتصدى لشرحها هي مشكلة تتبع عمل العقل في مجال تجريبي معين . ذلك العقل يعمل في التاريخ — وفي هذا المجال كا في المجالات الأخرى ليس حقيقياً إلا ما كان موافقاً للعقل لأن أي شيء في الوجود ، إنما يمثل تجلسي روح العالم وافصاحها عن ذاتها . وهذا التجلسي ، إنما يحصل بالعملية الديالكتيكية . ولا يقف الديالكتيك في حكمه عند حدود الفكر ، وإنما يمتد إلى الحوادث بالترتيب الزمني ، لأن كليها إنما تضمها جوانب من كيان واحد متكامل . ولما لم تكن الحقيقة الكاملة متمثلة في أي شيء سوى المطلق ، فهي نسبية إذن كأن أبرى في الشيء من حيث علاقته بالمطلق أن فيه من الحقيقة درجة أعظم أو أقدل ، وبذلك يكون فيه درجة أعظم أو أقل من الحكة أو الصدق تبعاً لذلك .

إن فلسفة التاريخ التي جاء بها هيفل تجعل المرء يتساءل ، هل أن الفلسفة التي توضع على هذه الأسس يمكن أن يستسيغها

التفكير الخلقي؟ ولكنه لم يستطع أن يأتي بجواب مقنع على هذا السؤال وتحاشى هذه القضية بمجرد القول بأن الوحدة الخلقية الصادقة ليست الفرد المجرّد ، وإنما الكائن الحيّ المعنوي ، وهو الدولة أو المجتمع الذي نشأ فيه ، وأن حقوق هذا الكائن الحي المعنوي ، وهو الدولة أو المجتمع ، يجب أن تعلو على حقوق الفرد المجرّد . وهو لا يرى في هلاك الفرد من أجل خير والكل ، أمراً منافياً للخالق. وفي فلسفة هيفل عذر ومسوّغ لكل ما في التاريخ من مظالم ، والسلطة التي هي قوة غاشمة بحرّدة تجعلها فلسفة هيفل معبوداً ، وأما الفرد ذاته فتفقده هذه الفلسفة كيانه فلسفة هيفل معبوداً ، وأما الفرد ذاته فتفقده هذه الفلسفة كيانه المستقل تماماً . ومعنى ذلك أن تصير روح الإنسان وخلودها بلا معنى ، وأن يعرف على أنه دولاب مسنس جيد في آلة المجتمع معنى ، وأن يعرف على أنه دولاب مسنس جيد في آلة المجتمع المعتمدة الحائلة ، وبذلك يفقد الإنسان صلة بالله ويحرم نفسه بما للحياة من قيم رفيعة ويتعلم أن يعيش بلا إرادة شأنه في ذلك المعتمدة في الكيان الإجتاعي .

أما ماركس فقد رفض، أو ظن أنه قد رفض، فلسفة هيغل المثالية برمتها، واحتفظ بنهجه الديالكتيكي، غير أنه جرده من شكله النعامض المتعلق بما وراء الماديات، وهذا ما يختلف بسه نهجه عن نهج هيغل. فماركس يرى أن السبب الأكبر لما يحصل في المجتمع من تغسير ليس كامناً في أفكاره، وفي الحق الحالد والعدل الإجتاعي، وإغسا في تغير أساليب الإنتاج والتبادل.

لذلك فالانتقال من مرحلة من مراحل التطور الإجتاعي إلى أخرى لا يكون لأن مبادىء عقلية استجدت أو لأن أفكاراً جديدة عن الحق والعدل ظهرت ، لأن هـنه متعلقة بالكيان العلوي ، والذي يجعل قبولها ممكنا هو أن التغيرات التي تحصل في قوى الإنتاج توجد بيئة تجعلها تبدو التعبير الطبيعي عما صار الناس يرغبون فيه . إن النظرية المادية التاريخية تميل إلى أن ترى في قادة الفكر والعمل مجرد حمكة لقوى الإجتاعية التي هي أساسها إقتصادية .

فلسفة التاريخ هذه تختلف عن المبادىء الآخرى التي تعالج ما يحصل في العالم من تغير إجتاعي إختلافاً جوهرياً. فماركس يعتقد أن الحافز الحرك الأكبر للمجتمع البشري المسؤول عن كل ما يحصل من تغير في وعي الإنسان وفكره ، أو الذي يسبب حسدوث النظم الإجتاعية المختلفة ، والمنازعات ليس منشؤه الفكر أو الفكرة أو (عقل العالم) أو (روح العالم) وإنما الظروف المادية للحياة ، لذلك فأساس تاريخ البشر مادي تماماً. والظروف المادية للحياة هي الأسلوب الذي يصور به البشر ، والظروف المادية الجتاعية ، حياتهم المادية ويكسبون معيشتهم وينتجون ويوزعون ويتبادلون البضائع اللازمة لقضاء حاجاتهم، مستعينين مع هذا الأسلوب بصفاتهم المبدنية ومواهبهم المقلية والطبيعة المحيطة بهسم . وأم أنواع ظروف الوجود المادية هو إنتاج الوسائل الضرورية للحياة . ويمكن القول بكلمات بسيطة إنتاج الوسائل الضرورية للحياة . ويمكن القول بكلمات بسيطة

أن ماركس يرى أن أساوب الإنتاج هو الذي يقرر الكيان العلوي الكامل للمجتمع ، شكله الإجتماعي والسياسي ، وقيمه الدينية والحضارية ، بسل فكره وآرائه . والنظرية الماركسية تنفي أي وجود للنوازع العليا في الإنسان وتجعل منه بجرد قشة لا سحول لها ولا قوة أمام التيارات العنيفة للقوى الإقتصادية .

ولا ريب في أن الظروف الإقتصادية تؤثر على المجتمع غير أن التماريخ لا يؤيـد أن الكيان الإجتماعي كله ما هو إلا إنعكاس لأساليب الإنتاج ، فالنسيج الإجتماعي يتألف من أشكال مختلفة من الأفكار والآراء والعادات والتقاليد .

وفضلا عن ذلك ، فما من سبب يوجب الاعتقاد بأن الجنس البشري لا بسد أن يرتقي بتأثير ضغط القوى الإقتصادية . أن موحد الفرضية ونقيضها ليس شرطا أن ينتج عنه نظام أرقى للعالم . فلقد تحسنت وسائل الإنتاج تحسنا مذهلا وازداد النشاط الإنتاجي زيادة غيير معتادة ، ولكن ما من أحد يستطيع أن يدعي بأن الموحد الموجود الآن هو خطوة متقدمة أكيدة في كل يدعي بأن الموحد الإنسان . لقد 'حرم الإنسان الحديث من حرية الإرادة وهشم الفرد تحت ثقل النزعة الجاعية الشديد ، وحرم راحة الفكر والحياة الروحية الداخلية .

 للظروف الاقتصادية ، فإنه لا يستطيع أن يَعُد شيئاً متفقاً مع الاخلاق ، وآخر نحالفاً لها وشيئاً عدلاً وآخر باطلا ، فقد حل المجتمع الصناعي الحديث أشكال التسلط السياسي القديمة ، ولكن أنظمة الحكم الطاغية التي نشأت على أنقاضها فاقتها في الوحشية والظلم . فعدم المساواة المتأصل في ملكية الارض قد أزيل غير أن عدم المساواة الاكثر حركة الذي يتسم به المجتمع الفني صار أكثر خطراً على الأمة من الاشكال الاكثر استقرارا التي تتسم بها السلطة الجائرة . هذه حقائق واضحة ملموسة لا يستطيع أن ينكرها أحد وهي تكذب الدعوى بأن الموسة لا يحمع في ذاته ما في الفرض والنقيض من عناصر جيدة ومفيدة بحما رائعاً . والشيوعية لم تستأصل أي فكرة رئيسة من أفكار المدنية الرأسمالية البورجوازية ، وإغسا اقتصرت على تشجيع الأنانية الجاعية للقضاء على الأنانية الفردية . لقد قبلت بالمقاييس المفاسدة التي تضع الاقتصاد في المرتبة الأولى وتجعل الولاء للضمير الخلقي والحق والله أموراً سخيفة منافية للعقل .

ويتفق فلاسفة التاريخ الفربيون ، على ما بينهم من اختلاف كبير في الرأي ، على النقاط التالية :

(أ) ان الذات الفردية مقيد، 'اكان والزمان وليس لهـا حرية إرادة.

(ب) أن اللاشخصية الجماعية ، وحدها هي الواقعية ، وأن الوجود المستقل للإنسان الفرد ما هو إلا وهم .

- ( ج) أن الذي يقرر نظرة الفرد والجماعات التي في المجتم هي الطروف المادية لا ذاته هو .
- (د) ما من حق خالد ولا معيار أخلاق وعدل مجر د، فهذه أفكار تتأثر بالزمان والمكان ، ولذلك ما من قانون ولا أمر يصدر إلى البشر يمكن أن يعد صحيحاً صحة دائمة وشاملة .

أما الإسلام فرأيه في فلسفة التاريخ مختلف تمام الإختلاف . لا شك في أنه إذ يدرس البشر لا يغفل الظروف المادية التي تحيط بالإنسان في حياته ، ولكن مركز دراسته هده و الإنسان . فهو يمنح الإنسان حرية في الإرادة ويرى فيه أداة قوية لمحارية الظروف المادية التي يعيش فيها وأن له من المقدرة ما يكفي لصياغة مصيره بتأثير ذاته . وجسمه محدود ومقيد بالبيئة المادية التي هو مسير فيها غير أن ذاته غير محدودة بالزمان ولا بالمكان ، وهي قادرة على تجاوز حواجز المسالم بالزمان ولا بالمكان ، وهي قادرة على تجاوز حواجز المسالم المادي . لذلك فالإسلام لا يرى أن الظروف المادية هي التي تقرر المسام شكل حياته الإجتاعية ونمطها ، وإن ما يأتيه الإنسان من عمل في الجمع ليس تجلياً للروح المطلقة ولا إنعكاساً لأساليب الإنتاج في المعميراً عن ذاته .

ثم ان الإنسان من حيث هو إنسان لم يحصل له من تغير ، وحوافزه هي هي، ولذلك فمشكلاته ومشكلات الإنسان الذي عاش في عصور ما قبل التاريخ واحدة من حيث الجوهر وأن

تغير حجمها ، وأغلب الظن أن عواطفه ومشاعر الفرح والكره والحسد عنده ذات شبه عظيم بماكان منها عند الإنسان الذي عاش في الماضي السحيق.

والإسلام إذ يرى في الإنسان هذا الرأي يحث البشر على أن يستفيدوا من دروس الماضي، وتكون لهم منه، كما يقول القرآن، (عبرة)، أي أن ينتقل المرء من أحوال زمنه إلى أحوال الأزمان الماضية، ويستخلص منها دروساً بالنظر في ما أدت إليه تلك الأحوال في الماضي. هذه النظرة للتاريخ لا تفيد إلا عندما تبقى مشكلات الإنسان على ما هي لا تتغير لأن طبيعة المشكلات إذا تغيرت كانت دراسة الماضي طلباً للعبرة عملاً عقيماً لأنها لا تفيد في الزمن الحاضر فائدة عملية.

ومن هنا المهتدي إلى حقيقة أخرى من حقائق التاريخ .
فنحن حين يستقر بنا الاعتقاد بأن طبيعة الإنسان ذاتها لم تتغير نستطيع أن نستنتج بيسر أن الخالق الذي صاغ فطرة الإنسان لا بد أنه قد وضع سننا تسيرها كا يجب ، وهذه السنن الإلهية يجب أن تكون صالحة صلاحاً شاملاً لأنها غير مقيدة أو متأثرة بالزمان أو المكان أو الأحوال المادية الحيطة ، وإنما أريد بها أن توجه فطرة الإنسان التي لا تتغير . لا ريب في أن الإسلام قد أوجد القواعد التي بها يقوم نظام إجتاعي خال من الاستغلال يؤدي إلى أن تنمو حياة الإنسان العقلية والروحية نمواً سليما ، ولكن هذا الدين الذي أنزله الله يهتم اهتماماً بالغا بأحداث تغيير ولكن هذا الدين الذي أنزله الله يهتم اهتماماً بالغا بأحداث تغيير

خلقي وروحي في نفس الانسان حتى يتجلى هذا التغيير في الحياة نظاماً خلقياً واجتماعياً جيداً .

أن الاسلام لا يتصور أن القوى الاقتصادية أو المادية وحدها يمكن أن تحدث أي تغير أو تحول في المجتمع البشري ، وإنما تغير ما في نفس الانسان هو الذي يتجلى في التغير الذي يحدثه في ظروف البشر الخارجية . لذلك يمكن أن نقول صادقين ، أن فلسفة التاريخ الاسلامية هي تفسير التاريخ المعنوي لأنها ترى في الانسان كائنا معنويا . نعم أن الظروف الخارجية تؤثر في حياته ولكن العامل الحاسم هو ذات نفسه فهي إما أن تهديه إلى سبيل الفلاح بأن توجد عنده استشعاراً لوجود الله فيعمل بما يرضيه سبحانه أو تهديه إلى سبيل الحسران والدمار ، إذ يحاول عبثا أن يتغلب بما أوتي من قوة على شعوره بعدم الأمن ، وبأن يخفي قصور ذكائه بما يزعمه من احاطة علمه ، وبكلمة موجزة ميله إلى أن يقيم من نفسه إلها لنفسه .

## المراجع

## باللغات الانكليزية والعربية والأردية

Adam, Brooks, The Law of Civilization and Decay

Amir Ali, Syed, The Spirit of Islam

Andre, Manrois, Why France Fell

Arnold, Thomas, The Legacy of Islam

Barthold, V. V., The Musalman Culture

Bell, Clive, Civilization

Bergson, Creative Evolution

Berlin, Isaih, Karl Marx

Bohm-Bawerk, E. V., Karl Marx and the Close of his System

Burns, Emile, What is Marxism

Cole, G. D. H., The Meaning of Marxism; The Consmon People

Cowell, F. R., History of Civilization and Culture (An Introduction to the Historical and Social Philosophy of P. A. Sorokin)

Cowper Poways, The Meaning of Culture

Croce Benedetto, Historical Materialism and the Economics of Karl Marx; Politics and Morals; What is Living and What is Dead of the Philosophy of Hegal

Dobb, Maurice, Marx as an Economist Ducondray, History of Modern Civilization Eastman, Max, Marxism, Is it a Science? Stalin's Russia and the Crisis of Socialism; The Last Stand of Dialectical Materialism

Engels, Friedrich, Anti-Dhuring

Federn, Karl, The Materialist Conception of History

Flint, Robbert, A History of the Philosophy of History

Gibbon, The Rise and Fall of Roman Empire

Gide, Charles & Rist, Charles, A History of Economic Doctrine

Gray, Alexandar, The Development of Economic Doct-

Hakim, Abdul, Islamic Ideology

Hegel, G. W. F., Lectures on Philosophy of History, translated by Sibree.

Hilda, D. K. Oakeley, History and Progress

Hitti, Philip. K. History of Arabs

Hunt Carew, The Theory and Practice of Communism

Iqbal, Allama Mohammad, The Reconstruction of Religious Thought in Islam

Issawi, Charles, An Arab Philosophy of History

Joad, C. E. M., Modern Political Theory; A Guide to Modern Wickedness; Great Philosophers of the World; Philosophy of Our Times

Joseph R Strayer, The Interpretation of History

Khuda Bux, S, Islamic Civilization

Kidwal, M. H., Women

Lambek, The Growth of Mind in Relation to Culture

Laski, H., The State in Theory and Practice

Lenin, V. I., The Essentials of Lonin; The Teachings of Karl Marx; State and Revolution

Lindsay, Karl Marx's Capital

Maciver, R. M and Charles Page, Society

Mann, Heinrich, Neitzsche

Mannehem Karl, Diagnosis of our Time

Mandel Baum, The Problem of Historical Knowledge

Marx, Karl, Capital; Communist Manifesto; Contribution to the Critique of Political Economy; Class Struggle in France

Matthews Shailer, The Spiritual Interpretation of History

Mazhar-ud-Din Siddiqi, Marxism and Islam

McTaggart, J. M. E., Studies in the Hegelian Dialectic

Mosley, A. C., Text Book of Marxist Philosophy

Muir Edwin, Essays on Literature and Poetry (Chapter on Oswald Spengler)

Mure, R. G., An Introduction to Hegel

Narain, Prof Brij, Marxism is Dead; Indian Socialism

Neitzsche, Thus Spoke Zarathüshtra

Nordau, Interpretation of History

Paul, Tillich, The Interpretation of History

Plato, Republic

Rader, Melvin, No Compromise

Russel, Bertrand, The History of Western Philosophy; The New Hopes for the Changing World; The

Practice and Theory of Bolshevism
Sayyidain, K. G., Iqbal's Educational Philosophy
Schelegal, The Philosophy of History

Seligman, The Economic Interpretation of History Selsam, Howard, Socialism and Ethics Sheen. J. Fulton, Communism and the Conscience of the West

Sorokin, P. A., The Crisis of Our Age
Spengler, Oswald, Decline of West (two volumes)
Stace, W. T., Philosophy of Hege!
Stalin, J., Dialectical and Historical Materialism
Strachey, John, The Theory and Practice of Socialism
Tara Chand, The Influence of Islam on Indian Culture
Teggart, J. Fredrick, The Process of History
Toynbee, Arnold, Civilization on Trial; Study of
History

Webb's Sidney and Beatrice, Soviet Communism; New Civilization

Zaki Ali, Dr., Islam in the World
MAGAZINES AND JOURNALS

Islamic Culture, Hyderabad, India Arafat, Lahore, Ed. Muhammad Asad The Voice of Islam, Karachi Iqbal, Lahore Islamic Literature, Lahore Islamic Thought, Aligarh

علامه ابن كثير دمشقى: تفسير القرآن العظيم علامه شهاب الدين سيد محمود آلوسي : روح المعاني مولانا أشرف علي تهانوى : بيان القرآن علامه شبير أحمد عثاني: فوائد القرآن

حضرت شاه ولي الله: حبحة الله البالغه

علامه ان خلدون : مقدمه

علامه محمد إقبال: ملت بيضا پر ايك عمراني نظر

مولانا أبو الكلام آزاد: ترجمان القرآن ، حصه اول و دوم مولانا سيد أبو الأعلى مودودى : (الف) تفهيم القرآن، حصه

اول ، دوم ، سوم و جهارم

(ب) إسلامي تهذيب اوراس اصول ومبادي

( ہے ) بناؤ بگار

(د) تفهیات ۶ حصه اول و دوم

(ر) تنقسحات

مولانا عبد الماجد دريا آبادي: تفسير ماجدي

علامه سيد سليان ندوى : أرض القرآن

مولانا سيد أبو الحسن علي ندوى : (الف) مذهب و تمدن

(ب) انسانی دنیا پر مسلمانون عروج و زوال کا اثر

پروفیسر محمد مجیب: تاریخ فلسفة و سیاسیات

ذاكثر يوسف حسين خان: روح إقبال مولانا عبد السلام ندوى: انقلاب امم مولانا أبو السلام نعم صديقى: تخريب و تعمير مظهر الدين صديقى: (الف) إسلام كا نظريه تاريخ (ب) هيگل، ماركس اور نظام إسلام

## الحاد

*	بين يدي الطبعة الثانية من الكتاب
•	بين يدي الكتاب
<b>\\</b>	القدمة
<b>Y 1</b>	النظرة الاحيائية للتاريخ
77	فلسفة هيفل للتاريخ
۸Y	الفكرة المادية عن التاريخ
131	التفسير الاسلامي للتاريخ
1 7 1	は出
١٨٣	المراجع باللغة الانكليزية
1 1 1	المراجع باللغة المربية والفارسية

## وتعلسه جميتع مششوراتنا من

• دار المتسبلم المتكويت شارع السور - عثمارة السود - بجوارة نارة الخارجية مرب ١١١٦ عمانة نا ١٠١٠

.

الشركة المنقطة للتوريخ متعددة متدي رشالة متدي رشالمة شهر ۱۱۰۷ هاتف انوواا